

خزانة الكلام

جميل عطيه ابراهيم

حلمي التوني ١٩٩٩

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول: يناير ١٩٤٩

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

ثمن النسخة

العدد ٦١٧

مايو ٢٠٠٠ ● صفر ١٤٢١ هـ

No - 6I7- MAy - 2000..

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - امريكا واروبا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولار.

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت . ٤٧٤١١٦٤
الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : بد - القاهرة ج . م . ع

TELEX 92703 hilal u n

FAX 3625469

ان البريد الإلكترونى •

darhilal@idsc . gov .

إهداء ٢٠١٠

المرحوم / محمد بن على الدعفس

المملكة العربية السعودية

خزانة الكلام

بقلم

جميل عطية إبراهيم

●

دار الهلال

الغلاف للفنان :
حلمى التونى

الفصل الأول

عابد عبد المتجلي زوغلي

أمطرت فجأة في الليل، هل تمطر اليوم مرة أخرى ؟

قبل خروجي وقفت في الشرفة أطمئن لحالة الجو. المطر لا يضايق اليزابيث لكنه يؤذي من كانت له صلعة مثلي. الخريف دوما مراوغ. شمس طالعة ولسعة برد مقبولة. سحابة واطئة على هيئة بطة منبعجة، ريشها من نتف رقيقة تلمع وأشم لها رائحة. الهواء ليس طيبا اليوم بسبب هذه البطة. تمنيت لو كانت السحابة على هيئة حمامة. البط لئيم وكسول.

وصل الطبيب. لحق بي في الشرفة. يود قياس ضغطي وإقناعي ببيع العمارة أو التنازل عن المكتبة. بيع المكتبة يهمه أكثر من صحتي. توجست شرا من قدومه هذه الساعة قبل خروجي. تجاهلته وانشغلت بمتابعة نتف السحب التي تتشكل، لعله يتركني. لكنه لم يفعل. أرتدي ملابس الخروج، كيف أعري له ذراعي، قلت:

ـ صحتي بمب، لا حاجة إلى قياس الضغط اليوم.

اليزابيث تنتظرني في الفندق في الساعة الحادية عشرة، ولا أود التأخر عليها، قال الدكتور سامح ابن أختي شيئا فاتني سماعه، بسبب ضجة السيارات أسفل العمارة، تبينت بعدها أنه يحدثني عن تفاصيل العرض الذي

وصله من شركة بان أكس كوم العالمية. عليهم اللعنة جميعا . لا أود البيع أو التنازل . هذا مسكني، نصحته بالذهاب إلى عيادته ، قال :

ــ تطردني يا خالي .

قلت :

ــ أنت الذي تود طردي من مسكني ببيع العمارة . أربعة وسبعون عاما قضيتها هنا . لم أسافر مثلك إلى الخارج . هل تعرف عشرة المكان ؟

قلت له ما عندي دفعة واحدة ، اعتقدت أن حديثنا انتهى ، لكنه بدأ يجادلني ، استمر في الأخذ والرد . يسمعني كلامه الخائب .

لا يرحم شيخوختي . كلامه حجارة . سألته عما إذا كان تعلم صيد البط في ريف بريطانيا ، أجابني بالنفي ، قلت : خسارة ، خسارة كبيرة . أكملت : من لا يتعلم صيد البط في بريطانيا ، وصيد السمك في ايرلندا ، لم يتعلم شيئا في سفرته . نصحته بتأمل البطة المعلقة فوقنا ، لكنه لم يرفع عينيه إلى فوق ، تجاهل سخريتي ، سألني عن الصداع ، المغفل يظنني مريضا أو مخرفا ، الصداع يأتيني بسبب أقواله ، قال شيئا : تبينت أنه يسألني عن وصية جدي زوغلي باشا . يصر الولد على ملاحقتي هذه الساعة ، قبل خروجي ، هذه ليست ساعة فتح دفاتر قديمة يا بني، قلت :

ــ من الأفضل استشارة محام قبل المجيء إلى هنا يا دكتور .

قال :

ــ أنا لن أجرجر العائلة في المحاكم يا خالي .

لن يجرجر العائلة في المحاكم ، لكنه يجرجرني إلى مستشفى المجانين بكلامه . لو جاءني في ساعة أخرى كنت أخذت وأعطيت معه في الكلام ، ولقنته درسا معتبرا ، لكنني هذه الساعة مشغول ، أمامي موعد ، قال :

ــ سؤال يقلقني يا خالي .

قلت :

ـ تفضل يا دكتور .

سألني المغفل عن وصية جدي زوغلى باشا الكبير، وهل هي مدونة وموثقة ؟ أمه دنيا زاد حذرتني من نواياه، وقالت لي لا تسأل فيه يا عابد إذا سألك عن الوصية، لا ترد عليه. لكنني قلت له موضحا :

ـ كلمة الشرف لا توثق في الدواوين. كلمة الشرف توثق في قلوب الناس. هذا ميثاق عائلتنا وتمسكنا به ثلاثة قرون كاملة.

قال :

ـ هذه وصية غير مكتوبة ولا تلزم الكافة.

أضحك أم أبكي ؟ من أين له معرفة هذه الكلمة، الكافة ؟ هذه كلمة تتردد في المحاكم وترد فى القوانين، مصطلح لا يرد في العلوم الطبية، ترك الولد الطب ويشتغل بالقانون. نجح في إثارتي. قلت :

ـ عندي موعد مع مجموعة من المستشرقين.

ثم أضفت، والمستشرقات ؟

سألني في خبث :

ـ من أجل المكتبة ؟ قلت : نعم .

سأل :

ـ صفقة مربحة ؟

أفزعني تطاوله، أنا لا أعمل بالبيع والشراء ؟ هذه مكتبة لخدمة الباحثين، ومهمتي الحفاظ على مخطوطاتها ومراجعها، لا بيعها أو تبديدها. ثلاثون عاما عملت فيها على دعم هذه المكتبة، وجاء هذا الولد هذا الصباح لينكد علي عيشتي ويعطلني عن الخروج. يتهمني بسرقة مكتبة أجدادي وبيعها، ربيته

في هذه المكتبة طفلا ، أشرفت على تعليمه صبيا وشابا ، وفي النهاية خان المكان ويسعى لبيع المكتبة . قلت له :

ـ دقق في كلامك يا سامح .

تكلست ذاكرته ونسى معيشته معي في أجواء هذه المكتبة . جمله قصيرة وخالية من الود هذا الصباح . ربما يحبني ، لكنه لا يفصح ، يدفن مشاعره تحت ركام من الصدأ ، رمي أيامه الماضية وتخلص منها . مصيبة . سن لا يحن إلى مرتع صباه تسود أيامه . يفضحني هذا الولد إذا أخبرته بأنني ذاهب للقاء مستشرقة بريطانية شابة عمرها ستة وعشرون ربيعا . تجاهلته . أخفيت عنه القصد والنية من خروجي . هذا بقال صغير هيهات أن يفهم . مقابلة هذه الصبية المليحة تخفض ضغط الدم ، وفيها فوائد للمكتبة .

لا يبتعد سامح عن طريقي هذا النهار ، خسارة ، نصحته بصيد البط في ريف بريطانيا قبل سفره للبعثة ، لكنه لم يفعل ، كنا نصطاد السمك سويا في صغره في جزيرة الذهب ، وأمام العمارة، كان صيادا بارعا في صيد السمك ، خسارة ، لو تعلم صيد البط في بريطانيا لتغير مسلكه معي اليوم ، لكنه تخصص في فرع دقيق من علوم الطب فضاق أفقه ، أفلح كطبيب واشتهر ، وتناقصت مداركه ، نفوسة التي توقفت عن التعليم بعد موت والدتها، لتشرف على شؤون البيت تفوقه إدراكا بأمور الدنيا . الدكتور سامح يتعامل مع الواقع بالقطعة على نهج تجارة القطاعي . يجري جراحة ناجحة يسرع لغيرها ، يضارب على ورقة مالية ، يكسب ، يجري وراء ورقة أخرى ، لا يثري خزانته بذكريات وأحلام يعيش عليها في أوقات الجفاف ، في مستقبل أيامه .

أمه دنيا زاد صغرى أخواتي النبات أحبهن إلى قلبي . امرأة قست الأيام عليها فزادتها فطنة . أزورها تسمعني كلاما طيبا ، وتقول لي : الولد كبر وفجر .

تضايقني سلاحقته لي اليوم ، وهو المشغول دوما عنى بعيادته . طلبت منه رؤية السحابة المعلقة التي تتشكل فوقنا ، وسألته عما إذا كانت سوف تمطر ؟ قال : ربما . الجو اليوم متقلب . حدثته عن البطة ، وذكرته برسوماته في صغره ، قلت له البط كسول ولئيم ، ويستخدمه أعيان الريف في الحراسة . لا يتابعنى ، هل يرى البطة ؟ هل يرى ما أرى ، قلت له : بطة ؟ ربما يراها زرافة أو تمساحا أو سيارة أو دبابة ، هذا شأنه . لم يتعلم صيد البط وعاد بمهارات تفوق مهارات عائلة برسوم المجبر في بدايات هذا القرن ، في المرة القادمة أروي له حكايات عائلة برسوم المجبر وتأسيس طب العظام في مصر . برسوم المجبر عالج الزعيم سعد زغلول ، هذا هو تاريخ طب العظام ، هل تعلم ذلك في بريطانيا ؟ لا وقت عندي للأخذ والرد هذه الساعة ، لكنني في المرات القادمة لن أتركه قبل أن أسمعه حكايات برسوم المجبر . لعل وعسى .

دخلت لأكمل زينتي .

ناولتني نفوسة منديلا أحمر وهي تتمايل لتغيظه ، وضعت المنديل بعناية وأنا أقف أمام المرآة في جيب سترتي ، أصلحت هندامي ، صففت الشعيرات القليلة المتبقية لي ، بينما رأسي تلمع قمته كبيضة مقلوبة ، لم أسأله عن دواء مسكن لآلام الظهر ، وسألته عن دواء لعلاج الصلع ، قال :

ــ الأدوية الموجودة في السوق غير فعالة .

اقترب مني ليفحص رأسي ، نهرته ، أين التخصص يا دكتور ؟ أكملت : الصلع لا علاقة له بالعظام ، أنا في حاجة إلى طبيب متخصص .

لم يضحك ، ورأيته مهموما ، قال :

ــ شباب دائم يا خالي .

قالت نفوسة :

ــ لا يحسد المال غير أصحابه .

تتهمه نفوسة بالطمع من صغره ، وتقلد أمها رحمة الله عليها في الســخرية منه . نفوسة تقربه سنا ، وكان أبي حزينا لتوقفها عن الدراسة ويردد :

ــ نفوسة جديرة بالتعليم . المربيات في عائلة زوغلي باشا يقرضـــن الشــعر ويعزفن البزق ، نفوسة في عقلها فطنة .

وعلمتها الايام ما فاتها في المدارس ، أصبحت عرافة العائلة ، تدرك مـــا لا يرى بالعين وتعرف مجريات الأمور بالحدس . مدبرة منزلي وأمينة مكتبـــة ، ومشرفة على ترتيب مواعيدي وحافظة أسراري ، وابنتي كما سامح ابني .

انتهيت من تسوية المنديل وتصفيف شعري ، ســـويت حافـــة الجـــاكيت ، عدلت من رابطة العنق وزينتها بدبوس من الماس ، نظرت إليه وسألته :

ــ ما رأيك في هذه الأناقة يا دكتور ؟

قال :

ــ لكم مقام مقال يا خالي ، وهذا لقاء عمل .

لم يقل لقاء بيع وإجراء صفقات مرة أخرى ، ســـامحه قلبـــي ، أخفيـــت سروري لقوله ، لكن ابتسامتي فضحتني . اللعنة على أطباء العالم. ينظـــرون إلي المريض نظرة واحدة فيخرجون أحشاءه ، لست مريضا ، تماسكت أمامـــه وأخفيت سروري ، واجهته ، هذا الولد لا يصارحني بما يشغله هذه الأيـــام ، يلف ويدور معي في الكلام ، وأنا لن أطلعه على سري ، قال :

ــ في أيامنا هذه المستشرقات شابات ، وهذا موعد مع حسناء يا خالي .

فضحتني عيناي بفرحتي بالبنت . كشف ظاهري عن باطني ولم تنفع التقية في إخفاء الفرحة . أطباء هذا الزمان عفاريت ، قـــالت نفوســـة ، وقـــد رأت خجلي :

ــ بنت بنوت ، قمر ١٤ .

هربت من المرآة ومن عينيه الفاحصتين ، سألته :

ـ كيف حال العيادة ؟

أجابني في كلمات مقتضبة غير كاشفة ، أدركت أن شيئا يشغله من هذه الناحية ، ربما يفكر في إقامة مستشفى استثماري لطب العظام أو الدخول في مضاربات في بور صات في الخارج ، في أيامنا هذه كل شيء جائز ، وكل الغرائب واردة . هل يشغله المال ؟ المال موجود ، وفي مقدوري مساعدته ، لكن ليس على حساب مكتبة أجدادي . سألت : متي تتزوج يا دكتور؟ ردت نفوسة مقصوفة الرقبة : الزواج بعد المستشفي .

ورد هذا الخاطر على بالي ، لكنني لم أتوقف عنده ، من أين لهذه البنت معرفة ما يشغل الدكتور سامح، وهو لا يفصح ؟ هل فاتحتها أختي دنيا زاد بما يشغل ابنها ؟ أمور العائلة خرجت من يدي ، كرست لهم حياتي وهاهم يديرون ظهورهم ، لا استشارة ولا إحاطة . المربية تعرف قبلك يا عابد . ربما يتعجلون موتك أيضا ، وأنت على وش الدنيا . تضايقت لهذا التجاهل . القصد ، تناولت قائمة مراجع طلبتها اليزابيث ووضعتها في حقيبة يد خفيفة .. إذا سألتني اليزابيث عن شاغلي هذه الأيام ؟ هل أروي لها شيئا وأنا أشاركها الطعام ؟ كلا ، البنت وقتها ضيق ، محسوب بالدقيقة والثانية ، وهذه مشاغل لا تهمها من قريب أو بعيد ، لكنني سوف أعرض عليها الإقامة في القاهرة ، والإشراف على المكتبة وإدخال الإنترنت والبرد الإليكتروني . هاجس يأتي من المرآة ويهمس : أترك البنت في حالها . ابتعد عنها . البنت شابة ومليحة . يحذرني هاجسي ، وبعدها يقول لي مطمئنا : لا تخف يا عابد ، هي التي سوف تبتعد . تمتلك الأنثى الكلمة الأخيرة ، هذه واحدة من أسرار الأنوثة التي حيرت الأمم والممالك عبر العصور . هذه فرصة أخيرة لتفهم يا عابد شيئا غاب عن السلف الصالح ، أذهب للقاء هذه الشابة .

نظرت إلى ساعتي . وقبل أن أفتح فمي . وصل السائق ، قال سامح : سوف أبقى في المكتبة يا خالي . قلت : على راحتك . لن يعبث سامح بورقة ، بقاؤه في المكتبة بمفرده بادرة خير .

على باب العمارة وقفت أتأمل مياه النيل ، صفحته تلمع وكأنها تجمدت ، لفحتني ريح باردة عطست، سقط الشتاء مبكرا هذا العام ، سألني السائق عن وجهتي . قلت : فندق شبرد .

الفندق على مبعدة أمتار قليلة من العمارة ، لكنني في حاجة إلى السيارة ، ربما تطلب اليزابيث شيئا من السائق . أترك السيارة تحت تصرفها. الدكتور سامح ليس الطفل الذي ربيته ، ذلك الطفل مضى ، صعب على القلب أن أقول مات، أقول فقط مضى . بلعته الدنيا ولفظته وحشا .

توقفت السيارة بسبب الزحام ، قلت للسائق : تصور يا عم فرج . سامح عاش في لندن ثماني سنوات ولم يتعلم صيد البط ؟ رد السائق : سامح غلطان يا باشا . هذه هواية الأمراء .

أعجبني القول : هواية الأمراء . نزلت من السيارة راضيا . سامح ليس أميرا أو حكيما ، بل بقال ، يعمل في تجارة القطاعي،علي أن أعلمه صيد السمك بالسنارة من جديد ، فصيد البط يتطلب سفرا إلى السواحل ، وهذه لا أقدر عليها .

* * *

الفصل الثاني

الدكتور سامح الدهشوري

سنحهم أبي فسحة كافية من الوقت . خمسة عشر عاما كاملة للقبض علي قاتل جدتي . قال : هي خمسة عشر عاما بيننا للقبض عليه ، وبعدها لنا حساب ، إما ، وإما .. مضت المهلة ولم يتم التعرف علي القاتل، طالبهم علي الفور بتنفيذ الوصية علي الوجه الأكمل ، وقال : الوصية تقضي بمنح المكتبة ومستلزماتها من شقة وأوقاف للبنت الصغرى دنيا زاد .

نسيت هواية صيد السمك ، وكنت أذهب مع جدي للصيد ، وعلقت الوصية في عنقي . خالي معه حق في سخريته . ماذا يشغلني في أيامي ؟ تجاربي العملية وأوراق بحثي أم تنفيذ وصية جدي الأكبر زوغلي باشا . بعد مضي ستمائة عام ، هل هذا معقول ؟

أبي من ناحيته لم يكن طامعا في مال ، بل عالم وشاغله العدل المطلق ، أما أنا فلست مثل أبي ، أنا طبيب ، ولست مصلحا أو فقيها في الدين . مقصدي المال والطمع دافعي . هذه حقيقة لا أنكرها ولا أخفيها . نعم . أنا طامع في الشقة والأوقاف والمكتبة . أما المخطوطات فلا تهمني من قريب أو بعيد ، وفي مقدوري تركها لخالي إذا تمسك بها .

لا أود الانتقام ولا أقدر علي النسيان . أدور في ساقية . طبيعتي العناد ، وهوايتي المقامرة ، والتسامح صنو النسيان ، وأنا لا أنسى ، لهذا لن أسكت . والفضيحة قادمة، هذا ظني .

أبي الدهشوري بك لم يكن متطرفا كما يدعون ، بل رجل حكيم ، وفي غاية الصبر والاتزان ، قال لهم : خمسة عشر عاما بيننا ، وبعدها نتكلم ، إما القبض علي قاتل جدتي ، وإما حرمان الذكر من إرث المكتبة وأوقافها ومستلزماته . المكتبة من حق البنت الصغرى في حالة.عدم حفاظ الذكر على سلامة أهل بيته ، وجدتي قتلت في حادثة سيارة ، وترك جثمانها على الرصيف لعدة ساعات ، وفي نهاية المطاف لم يقبض على الفاعل . إما وإما .

أغلق ملف القضية وقيدت ضد مجهول ، أنذرهم أبي ، قال : أصمت خمسة عشر عاما، وبعدها لنا قول آخر . لم يأخذ أحد كلامه على محمل الجد . انتهت المدة ، قال لهم : يجب إعادة الأمر إلى صوابه . المكتبة من حق دنيا زاد . صمت أبي خمسة عشر عاما . يا له من حكيم . قال : هذه هي حد التقادم . كان يأخذ نفسه بالشدة . هل أصبر عدة سنوات أخرى كما صبر أبي ؟

خالي صحته ليست علي ما يرام ، وأمي أيامها معدودة ، هل أتركهما في سلام ؟ لا أعرف . قلت : لا داعي للعجلة هذه الايام . الصبر فضيلة .

هذه واحدة من حكايات عائلتنا لأمي ، عائلة زوغلي باشا الكبير ، حكايات غير مدونة ، لكنها زادتنا عند الشجار وفى التواصل . الكلام غير من تركيبة الدماغ وتكوين المخ في عصور سحيقة . وحكايات عائلة زوغلي باشا نرضعها من أمهاتنا ، وربما شكلت تلا فيف أدمغتنا ، فجعلتنا طينة أخرى ، طينة غريبة ، طينة قوامها البحث عن العدل المطلق ، فلاحقتنا تهمة التطرف ، ووصفنا بالمشايخ .

لم أثقل اليوم على خالي هذا الصباح ، كان سعيدا ، وانتقلت فرحته إلـــي ، استسلمت . لم أقس الضغط ولم أنكد عليه . رفض تعرية ذراعه بينما جـــهاز الضغط في يدي ، تركته على هواه .

خالي كانت عيناه تلمعان وهو يحدثني عن السحابة المعلقـــة ، ويطـالبني بمتابعة نتف السحب وهي تتشكل ويضحك . كنت أعرف أنه يسخر ، يلاعبنـي بطريقته الخاصة . يسخر من البط ومني ، سخرية لطيفة وبعيدة عن الغلظة .

تقبلت سخرية خالي هذا الصباح في ود .

كلما سألته شيئا قال : البط كسول ولئيم .

خالي لا يحب البط، وله حكايات في كيد البط تفوق حكايات كيـــد النســاء المعروفة في مرارتها . وجاءت هذه السحابة الخفيفة وفتحت نفســه للكــلام : حدثني عن مقالب البط . عطلني، وشغلني بتلك السحابة ، لعبة هبطت علينا من السماء ورأى ملاعبتي بها ، استجبت . لم أكسر بخـــاطره . فــرح ، قلــت : قياس ضغطه لن يفيده قدر هذه الفرحة . تركته على هواه .

حساسية صدره كما هي ؟ يسعل بين وقت وآخر. سعاله خفيـــف لكنـــه ظاهر ، والأهم أنه مصحوب ببلغم ، لكن في عينيه رغبة في التغلب علي هـذه المتاعب بعد توقفه عن التدخين تماما ، وحفاظه على تنـــاول الأدويـــة فـــي مواعيدها بفضل نفوسة .

كنا نذهب لصيد السمك من النيل ، وكنت بارعا في صيد سمك البســارية الصغير ، وفي أحيان قليلة البلطي المتوسط ، وكان حلمي أن أتعلـــم الصيــد بالشباك . لكن أمي كانت ترفض هذه الفكرة من أساسها بسبب خوفها على من الغرق والبلهارسيا .

ذكرني خالي اليوم بحكايات قديمة . كتبت لـه أدوية جديدة وتركت الروشتة مع نفوسة . وقبل خروجي شددت عليها بضرورة تناوله الأدوية في مواعيدها . نفوسة لن تنسى ، وسوف تقنعه بتناول الأدوية الجديدة .

الأسبوع الماضي كانت حالته أفضل، أعوده بعد ثلاثة أيام .

لن أفاتحه مرة أخرى في شأن عرض بيع العمارة أو المكتبة حتى يعافى . السعال يصحبه عادة ضيق الخلق والعصبية في القول والفعل ، وخالي رجل عصبي تشغله أبحاثه وقضاياه الفكرية ، وتزيد من عصبيته . أرسل له العرض بالفاكس . يدرسه في هدوء .

صحته جيدة بالنسبة إلى عمره . آثار النزلة الشعبية التي أصيب بها منذ سنتين تغيب وتظهر ، متاعبه تبدأ فقط مع قدوم الشتاء .

معظم مرضى عيادتي من كبار السن . وهؤلاء مثل خالي لهم أوجاعهم الخاصة إلي جانب مشاكل العظام . أخطرتني الممرضة بوصول جفت هانم النقلي . نظرت إلى ساعتي ، تأتي هذه العجوز في موعدها بالدقيقة والثانية . طلبت إدخالها على الفور ، حتى أخلص منها ويعود الهدوء إلي قاعة الانتظار . جفت هانم النقلي تحدثني عن أحداث يومها قبل جلوسها . لا تكف عن الشكوى أو الثرثرة في الفارغ والملآن ، وقد اعتدت علي سماع ما يشغلها قبل الكشف .

هذا واجبي .

قالت السيدة التي يزيد عمرها عن خمسة وستين عاما ولا تزال تحلم بالزواج من أمير غائب عن البلاد منذ عام ١٩٥٢ ، إن المنطقة مزدحمة إلي حد الجنون ، والسائق تعب في ركن السيارة ، وافقتها على قولها ، لكنها

كررته أكثر من مرة قبل أن أمد يدي لفحص عظامها ، أرهقتنـــي ، عـــاملتني وكأنني المسئول عن المرور في القاهرة ، قلت : العيادة ســـوف تنقـل إلـــى عمارة علي النيل ، عمارة بها جراج واسع يتسع لاربعين سيارة ، قالت : هــذا أفضل من مدينة نصر أو العجوزة ، الشوارع هناك مزدحمة أيضا .

لا أدري لماذا صارحت هذه العجوز بنيتي ؟ شقة خالي بعيدة المنال ، ربما لأخلص من ثرثرتها وسضايقاتها المتكررة .

ما يروقني في شقة خالي إلى جانب اتساعها وبراحها ، الجـــراج الواســع أسفلها ، جراج فخم ، قال السايس لي اليوم ، مرحبـــا : مكـــانك محفــوظ يـــا دكتور . أسعدني قوله . يستعد لاستقبالي من الآن ، تركت سيارتي في الجراج وقدمت إلي العيادة علي الأقدام . تجربة . المسافة أقصر مما قدرت ، تحتـــاج عشرين دقيقة فقط . السايس معه حق . اترك السيارة عنده كل يوم .

هل هناك فرصة يا أبي لتصحيح ما مضى وفات ؟ لا أعرف . أنـــا فـــي ناحية وأمي في ناحية . وزاد مرضها الأخير الطين بلة وأصبح الكلام معــها لا يفيد . هي الآن مريضتي وليست أمي . قالت هذا الصباح غاضبــــة : فضـــها سيرة يا ولد . اترك خالك عابد في حاله . قلت : حاضر . ســـــمعت كلامـــها وتركته اليوم في حاله ، بينما عرض الشركة في جيبي ، اكتفيت بالإشارة لـــه ، بينما هو مشغول بالحديث عن البط وسمات البط ، وكيفية استخدام البـــط فـــي الحراسة في بيوتات أعيان الريف بسبب لؤمه وخبثه . كنت رقيقا معه كمــــا أوصتني أمي ، سألته عن وصية جدي زوغلي باشا الكبير في رفـــق ، ســـألته وصمت ، لم أناقش أو استفسر . عملت كما أمرتني أمي .

وصية جدي زوغلى باشا الكبير هي الجرح الذي لن يندمل في عائلتنــــا إلا بفعل الحق .

أكذب لو قلت إنني سوف أترك خالي يهرب بالغنيمة ، لكنني أساير أمـــى مضطرا هذه الأيام بسبب تدهور حالتها ، مـــاذا أقـــول لـــها ؟ ضـــاع وقـــت المحاجاة ، قل فهمها وذادت عصبيتها . رددت أمامي أقوالها البائســـــة للمـــرة المائة : هذا خالك يا ولد . أعرف . هو خالي . ولكن ما يؤسس علـــي بـــاطل فهو باطل . ووصية جدي زوغلى باشا الكبير تم انتهاكها بواسطة أبيـــها عبـــد المتجلى بك عن عمد وسوء نية ، وهذا ما أودي بحياة والدي في النهاية بعـــــد صبره خمسة عشر عاما ، لم يكن أبي طامعا في مال ، ولكن شاغله العـــدل . العدل المطلق هاجسه الأول والأخير . تركهم خمسة عشـــر عامـــا ، وبعدهـــا قال : حان الوقت لتنفيذ الوصية . إما وإما .

كان أبي يحلم بعالم آخر . ولم يستجب أحد لندائه . نفد صبره طق مـــات . كلا لم ينفد صبره ، من يصبر خمسة عشر عاما عن رضا ، لا ينفد صـــبره ، لكنه غضب وثار بسبب الظلم وعدم احترام مشيئة الموتى .

خمس أخوات بنات كلهن أجمعن علي ترك نصيبهن في المكتبة ونصـــــف العمارة لأخيهن الأصغر عابد ، تنازلن عن حقوقهن بمواثيق رسمية ، وأمـــــي دنيا زاد صغرى البنات لا حول لها ولا قوة ، ماذا تفعل ؟ حقيقـــــة عوضـــهن جدي عبد المتجلي بك عن المكتبة ولم يظلمهن من الناحية المادية ، بل منحـــهن أراض واسعة وأمـــــوال ومجوهـــرات تزيـــد قيمتـــها عـــن قيمـــة المكتبـــة والمخطوطات ، ولكن أبي ظل علي رأيه ، مطالبا بتنفيذ بنود الوصية حرفيـــــا واحترام مشيئة صاحبها . قال : هذه الوصية لا يجود الزمان بمثلها ، وصيـــة تتفق مع الدين والشرع . وصية فيها نفحة من روح هذا الشعب الطيب، ويجب التمسك بها . المكتبة للبنت الصغرى . دنيا زاد . ولكن لا حياة لمن تنـــــادي . تنازلت أمي عن حقوقها قبل زواجها وتوقفت عن المطالبة بها بعد الزواج . بل

ونصرت أباها عبد المتجلي بك ومن بعده أخاها عابد ووقفت إلى جانبهما في خلافهما مع أبي .

دبت خلافات بين أبي وبقية أفراد عائلة أمي ، خلافات فقهية وشرعية سممت حياتهم ، لكنها لم تصل أبدا إلى المحاكم ، كان أبي يرفض ، ويقول : هو الحق . وليس المال مطلبي . ويتحسر علي ضياع الوصية، بقوله : خسارة يا مصر .

ضايقني هذا الصباح حديث أمي ، لكنني فرحت بنطقها ، حركت لسانها بطريقة عادية وتذكرت الكلام بعد نوبة اللعثمة التي أثرت علي نطقها في السابق . أول ما نطقت : فضها سيرة يا ولد . استرحت . مخارج الألفاظ كانت طبيعية ومشحونة بالأمر والنهي . بعدها أكملت : أترك خالك في حاله . فرح قلبي . استعادت الكلام . لهذا السبب لم أتقل علي خالي اليوم ؟ تركت نفسي لدعاباته ورغبته في صحبتي لصيد السمك في جزيرة الذهب بعد كل هذه السنين ، كما كان يصحبني في صغري . شاركته فرحته ولم أضق بحديثه وسخريته .

ولكن بقدر ما أسعدني نطق أمي اليوم، بقدر ما ضايقني كلامها . اللعثمة ونسيان الكلام علامات ليست مطمئنة في سنها المتقدم . علامات تعني أنها قفلت باب النقاش بالضبة والمفتاح حول حقوقها الضائعة .الحقوق التي اغتصبها خالي . تناديني أمي دائما بالدكتور ، وإذا كانت فرحة زادت الأستاذ الكبير ، وعندما تغضب تقول : يا ولد . وهذه المرة ، قالت : يا ولد . حالتها لا تسمح بالأخذ والرد .

أحوال أمي الصحية وتقلباتها المزاجية وتعلقها بخالي ، تركة أخرى من مخلفات الماضي إلي جانب وصية جدي الغامضة . تركتان كان أبي الدهشوري بك ضحيتهما : أمي ووصية جدي الكبير .

انتهيت من فحص فقرات العمود الفقري لجفت هانم النقلي ، كانت صامتة ، تتقبل نقر أصابعي ودقات المجس ، نزلت إلي الركبتين . سألتني : ماذا يشغلك يا دكتور ؟ قلت : آلام الركبة ضاعت . قالت : نعم . ولكن ..

ماذا تود أن تقول هذه المرأة ؟ هل تزعم استمرار الألم ؟ كان يجب أن تكون سعيدة .

امرأة لا تكف عن الزن . جاءت العيادة أول مرة وهي تصرخ من الألم ولا تكف عن الثرثرة وشرح مشكلتها وكيف أصابها الألم فجأة وهي جالسة ، قالت الممرضة : هذه المرأة آلامها سببها كثرة الكلام . نهرتها لسخريتها من مريضة في عيادتي ، وبعدها ضحكت لهذا التشخيص العجيب ، بل وجدته معقولا .

قالت العجوز وهي تقف علي قدميها مستريحة ، لا تتألم : حلمت الليلة الماضية بأنني زوجتك عروسا جميلة شابة . ابتسمت . كنت أقف بعيدا عنها ، قالت : اقترب . أكملت : أنت لم تدخل دنيا .

لا تحترم صمتي هذه المرأة وأنا طبيبها . قفزت إلي موضوع آخر ونسيت موضوع زواجي ، قالت ، وهي تشير إلي صورة مومياء معلقة علي الحائط : عرف قدماء المصريين تطبيب العظام بطرق أفضل من الطب الحديث . تجاوزت عن تعليقها السخيف . كنت في عجلة وأود الخلاص منها ، طلبت منها القدوم في الأسبوع القادم .

سارت مفرودة وقد تخلت عن العصا . شفيت في أقل من أربعة أسابيع بدلا من ستة أشهر بسبب حيويتها ، قبل سؤالها عن سبب معرفتها بهذه الصورة التي يعرفها كل أطباء العظام في العالم وكذلك طلبة الطب ، أخرجت مجلة فرنسية فيها دراسة شهيرة عن هذه المومياء وزعمت أنها قرأتها منذ سنوات طويلة لا تذكرها ، ابتسمت . كل ما فعلته هذه المرأة لا بد أن يكون منذ

سنوات طويلة ، فهي هذه الأيام لا تفعل شيئا سوى الكلام ، تخرجه من خزانتها لتصدع رأسي .

والدتي دنيا زاد كانت حافظة روايات وحكايات شعبية كثيرة . اهتمت بدراسة الخلافة العثمانية وآدابها الشعبية وأساطيرها ، ألقت أضواء باهرة علي التطور الاجتماعي في منطقة الأناضول من خلال الحكايات الشعبية . الأسبوع الماضي ذكرتها بحكاية القرد الذي يحرس الكنز في العزبة ، ويحلم الفلاحون بقتله لفتح الكنز . أغضبتها حكايتي وأفقدتها النطق لعدة ساعات . هذه الحكاية كنا نسمعها في صغرنا . لماذا أغضبتها ؟ هل ظنت أنني أسخر من خالي بهذه الحكاية ؟ خالي ليس قردا ، ربما يحرس كنزا ولكنه بالتأكيد رجل فاضل وحكيم ، وليس قردا . خالي لم يكن مسئولا عن انتهاك الوصية ، انتهك الوصية جدي عبد المتجلي بك وليس ابنه عابد ، خالي ساكت عن الحق فقط . قبل ما ليس من حقه . والسكوت عن الحق من المعاصي ، وفي رأي أبي من الكبائر .

حدثت أمي عن النداهة التي تخطف الرجال في العزبة لتتزوج بهم تحت الماء . ضحكت بشدة . هذه الحكاية أسعدت أمي . لا أعرف سبب فرحتها بهذه الحكاية ؟ لكنها طيبة وربما تنتظر أن تخطفني جنية وتتزوجني . تحلم بزواجي قبل رحيلها . تعرف أنني مشغول بأبحاثي ، وتنتظر الفتاة التي تخطفني .

جفت هانم النقلي لا تروي حكايات ظريفة مثل أمي ، لكنها تغرقني في أحداث يومها في كل مرة ، ولها قدرة علي سرد التفاصيل الصغيرة السخيفة ؟ ذات مرة حدثتني عن حادثة صادفتها وهي في الطريق إلي العيادة ، فشوقتني إلي زيارة المنطقة التي وقعت فيها الحادثة . كنت أود التأكد مما روته ، وكان وصفها دقيقا إلي درجة أن إشارة المرور كانت كما وصفتها . هذه المرأة لها

ذاكرة قوية قادرة علي التقاط التفاصيل الصغيرة وكأنها كاتبة رواية أو محقق شرطة ، مسكينة ، لا تجد من يسمعها غيري .

خالي عابد عبد المتجلي زوغلي في حاجة إلى هذه المرأة ، لديها قصر في الزمالك يتسع لمراجعه ، يفتتح مكتبة حديثة ويزودها بالإنترنت كما يقول ، ثمانون ألف مرجع في حاجة إلي قصر . اختارت عروسا لي في منامها وأنا اخترت لها رجلا من لحم ودم وليس من أطياف المنام ، رجلا ولا كل الرجال ، خالي عابد عبد المتجلي زوغلي . هل تصدق الأحلام في بورصة الزواج ؟ عادة لا تصدق الأحلام في بورصة الأوراق المالية وسوق العقارات ، والأخيرة تحكمها قوانين الغاب ونسبة المخاطرة فيها عالية ، علي عكس ما يظن الهواة ، خسارتي في الأيام الماضية كبيرة لكنها محتملة ، ولست نادما علي تلك المغامرة ، خالي لن يترك لي طابق العمارة راضيا ، معاداته أكبر خسارة في حياتي، لأن مضايقته فيها القضاء علي أمي، هذه لا شك فيها ، ما العمل ؟ لا أعرف ، الطرق المتاحة قليلة ، وعناده يسد كل المسالك .

أطلب الكلام من أمي ويضايقني من هذه المرأة ، أميل إلي طلب الصمت من الآخرين فيما عدا أمي ، صمتها يقربها من ساعة بعادها عني . صحتها في تأخر . لهذا لا أطيق في ساعة راحتي في النادي ثرثرة مارينا أبو المحاسن . جمال هذه الفتاة يفسده كلامها ، حقيقة تروقني فتنتها لكن ثرثرتها تقتلني . لم أر في حياتي فتاة تثرثر لحظة تقبيلها . كيف ؟ لا أعرف . مارينا أبو المحاسن لها قدرة علي الثرثرة وأنا أقبلها ، أقضم شفتيها حتى تصمت ، تخرج الكلام من حلقها . ذات مرة ضربتها لكي تصمت ، لكنها لم تصمت ، وحدثتني من بطنها .

تذكرني مارينا دوما بحكايات بائعات الهوى اللاتي كن نقع عليهن في شبابنا ويزعم بعضنا أنهن يقزقزن اللب أثناء مضاجعتهن حتى جاء لئيم وتفنن وأبدع ، كأن حكاية قزقزة اللب لم تكن كافية ، فزاد ، وزعم أن إحداهن كانت تقرأ صحيفة بينما أنا أعاشرها ، وكانت هذه لطمة لي علي الرغم من معرفتنا بأن بائعات الهوى اللاتي كن نصادفهن في صغرنا من شغالات وبائعات لا يعرفن القراءة من أصله ، ولما تبين كذبه ، أضاف صاحبنا ، أنها كانت لا تقرأ ، بل تتفرج علي الصور ، ليزيد من إهانتي .

مارينا تثرثر قبل وأثناء وبعد .

حزمة كبيرة من الكلام في فم جفت هانم النقلي تلقي ببعضها مع كل خطوة تبعدها عني . يا ليت أمي تمتلك كلاما مثلها ، من يتكلم يمكنه في بعض الحيان السماع ، أما من يرفض الكلام فيسد منافذ السمع ، لا يترك بابا للأخذ والرد ، وأنا في حاجة إلي إذن منها ، تقول لي افعل ما شئت يا ولد ، أبدأ في ملاحقة خالي في المحاكم ، أكشف المستور ، لكنني لا أقدر علي مخالفة مشيئتها حية أو ميتة ، كلمة واحدة منها ترضيني ، تريحيني ، لكنها تبخل بهذه الكلمة ، أنا تكفيني إشارة من يدها ، لكنها تبخل بهذه الإشارة ، كلمة من فمها أو إشارة من يدها ، واحدة منهما تكفي لمقاضاة خالي ، لكن العناد سمة من سمات عائلة زوغلي باشا .

فزت اليوم بكلمة من فم خالي . الوصية ليست موثقة ، ولهذا من السهل الدفع ببطلانها ، وهذه فيها فضيحة العائلة ، أبي لم يطرق هذا الباب وهو رجل قانون ، قال لهم : إما وإما . ومنحهم مهلة خمسة عشر عاما كاملة ، حتى شاع هذا القول بين العائلة ، إما وإما ، فهل ؟

كنت أود مصارحة خالي اليوم ، بقول أبي ، لكنني خفــت مــن إصابتــه بأزمة ، كن فرحا ولم أكسر بخاطره ، بلعت الكلام كما تفعل أمـــي ، تركتــه لفرحته ، ولكن إذا تعقدت المسائل وأغلب ظني أنها سائرة إلى تعقيد ، لا مفــر من تذكيره بقول أبي : إما وإما ، وربما أزيد عليها حيثما ..

* * *

الفصل الثالث

عابد عبد المتجلي زوغلي

وصلت إلي الفندق قبل موعدي مع اليزابيث بربع ساعة . تركت الدكتور سامح في المكتبة ، لعل وعسى يفيق من ترهاته . اخترت مائدة في نهاية الصالة وطلبت فنجان قهوة . انتظرها . أراها من بعيد وهي قادمة تشق الصالة من البداية إلي النهاية . الفتنة في السير وليست في الجلوس . طريقة سيرها تعجبني . أكحل عيني بها. من لا يري مليحة فى سيرها يجهلها. خطواتها سريعة. نشيطة.هذه المائدة المنعزلة في الركن، بعيدة عن ضوضاء الفندق وزحمة القادمين والخارجين، وتتيح لي رؤيتها من بعيد لحظة قدومها .

وضعت قائمة بعدة مراجع طلبتها أمامي علي المائدة حتى لا أنسى ، وانتظرت قهوتي . البنت مشغولة بتتبع مسار حركة التنوير في الشرق ، وعلي دراية بركائز الفلسفة الإسلامية ، خاصة اجتهادات المعتزلة . تلك الاجتهادات التي قادت إلى انقسامات وتجاوزات في نهاية عهد الخليفة المأمون وطوال عهدي الواثق والمعتصم . عرضت الخلفية التاريخية للبحث في عمق ، لكن ما رتبته عليها من نتائج في حاجة إلى إعادة نظر . لفهم القرن العشرين في الشرق يجب فهم سياسات الدول الغربية فقد كان الشرق بعد سقوط الخلافة مسرحا لصراع غير متكافئ ، ومحلا لأطماع الدول العظمي . أقول لها ذلك في هوادة . آخذ بيدها .

البنت صغيرة . ستة وعشرون عاما . ما شاء الله . قدرتها علي فهم المتون والهوامش والتفريعات تفوق قدرة كثير من الباحثين في مصر ، وتزعم أنها تلميذة . باحثة مبتدئة . هل تقبل الأشراف علي المكتبة ، أعرض عليها ذلك . هؤلاء الأجانب يحددون خطواتهم مقدما ويعرفون مسارات حياتهم ولا يتركون شيئا للصدفة . حقيقة تقابلنا صدفة في الطريق دون معرفة سابقة ، لكن هذا لا يعني أن صدفة سوف توحد بين طريقينا . هي مشغولة ببحثها ووقتها ضيق ، وأنا مشغول بالمكتبة ومشاكلها . أمامنا ساعتان اليوم . ربما تمنحني قبلة لا استحقها . نضارة بشرتها تمنعني من لمس يديها . لا أنكر أنني تعلقت بها منذ رؤيتي لها ، كلا منذ محادثتها لي في الطريق. فأنا لم أرها في البداية، وسألتني إذا كان في مقدوري مساعدتها فتبينت وجهها .

اليزابيث تقربني في الطول . نحيفة . وجه ناصع البياض .عيناها ضيقتان فيهما اتساع بسبب نظرتها العميقة . صوتها رقيق رقة جسدها. تقاطيعها جذابة . صبية . في عمر ابنتي أو حفيدتي . تصغر الدكتور سامح بثماني سنوات، ولكن ...

في المرة السابقة قبلتني اليزابيث أمام حماده الجرسون . أخذتني في حضنها وقبلتني . تركتها . لم أمد شفتي ولم ألمس وجنتيها . هذه المرة إذا قبلتني ، أمد شفتي وأقبلها في فمها . أسرق قبلة . عيب يا عابد . العياذ بالله من تطلعات العواجيز وسخافاتهم . يكفيك الجلوس إليها . هذه رؤية أجيال جديدة ، الأيام القادمة ملك بنانهم ، يفهمون رموزها ويديرون مفاتيحها . في المرة الماضية شكوت لها من الدكتور سامح ، ورغبته في هدم المكتبة على رأسي ، قالت شيئا وصمتت . لم تعلق . مشغولة ببحثها . اطلعت علي الهوامش التي وضعتها ، وقفت ، وأخذتني في حضنها . خجلت من نفسي . هذه المرة أود .. عيب .

لرؤية يوم واحد من بثينة

ألذ من الدنيا لدي وأملح

نحن العواجيز علينا الأكتفاء بالرؤية أو الرحيل . لا وقت لديهن لنا . يحكمون علينا بالموت قبل دخولنا القبور . معهن حق . حب الصبايا ليس من نصيبنا . اليزابيث تسير مفرودة ولا تهتز مثل نفوسة . صبية لا تعوقها أنوثتها . أنوثة اليزابيث داخلها . أنوثة تشع من عينين لامعتين ، وشفتين رقيقتين ، وبسمة فيها دلال .

سألني الدكتور سامح اليوم : حسناء ؟ ردت عليه نفوسة : بنت بنوت . قمر ١٤ . تركني ولم يطاردني لقياس الضغط . أراحني من تعرية ذراعي . لكنه ضايقني بحديثه . لم يكمل جميله ويصمت . تابع كلامه . نعم . الوصية غير موثقة . ماذا يظن المغفل ؟ هذه وصية تلتزم بها العائلة جيلا وراء جيل . عرف بيننا له قوة القانون . عقد اجتماعي . عقد يتفق مع الشرع ولا يخالف القوانين . عقد من أجل العلم . أكرس حياتي من أجل المكتبة . أحافظ على المخطوطات والمراجع . افتح بيتي أمام الباحثين . هذه مكتبة زوغلي باشا الكبير . والده الدهشوري بك خانته قواه العقلية في نهاية حياته وفقد توازنه ، وشن حربا على زوجته دنيا زاد وعلى أبي . ورث الولد طباع أبيه . قلت له في الصباح : السحابة علي هيئة بطة . لا يرى مثل بقية الخلق وينظر في داخله .

اليزابيث تفهمني . لا تود زيارة المكتبة ، وتقابلني دوما في هذا الفندق .

حماده الجرسون يتابعني من بعيد . قدم ؟ رفع فنجان القهوة الفارغ . لم يسألني شيئا . يعرف أنني أنتظر صبية مليحة . يبتسم . اليزابيث لن تتأخر يا ولد . تأتي في موعدها . لا تشمت ؟ أنا قدمت مبكرا . هذا الجرسون يعرف اليزابيث ، من أين ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ لا أعرف . ربما من كثرة ترددها علي

المكان ، اختارها دون بقية الحسناوات ابن الحرام . معه حق . أقابلها في المرات القادمة بعيدا عن هذا الفندق . حماده يقف هناك . عيناه علي مدخل الصالة . تقدم اليزابيث فيتحرك إلى جوارها ويصحبها إلى مائدتي . تعرفه بالتأكيد . ربما تلتقي به بعد ذهابي . كيف فاتني سؤالها عنه ؟ نسيت . عند ذهابها تشغلني عيناها ، ولمسة وجنتها الطيبة الناعمة .

وصلت اليزابيث . استقبلها حماده الجرسون عند مدخل الصالة . يتحدثان ويضحكان . بينهما أسرار . تضايقت . هل مدت يدها له ؟ كلا . هذه معرفة ليست في حاجة إلى مصافحة . الخالص . شاب لا بأس به . يصلح لها إذا تفرغ للفلسفة وترك أعمال الفنادق .

هزت رأسها لي من بعيد . بادلتها الترحيب بإشارة من يدي . تبتسم . تقترب مني . أخذتني في حضنها . وضعت رأسها على كتفي وأراحته . البنت متعبة . قبلتني علي وجنتي . قالت شيئا . جلسنا . رحبت بها . كان الجرسون يقف إلى جواري كلوح الثلج . قلت : كوب لبن وفنجان قهوة . زجرته بعيني . مضى . ضحكت اليزابيث . فهمتني لكنها لا تخبرني بأصل الحكاية، لكن بسمتها فضحتها ، هذه البنت قلبها لا يعرف الكذب، على كل حال صاحبها ، عشيقها ، لا شأن لنا بها . كل شيء جائز . تقابله ليلا . ولماذا ليلا ؟ تقابله نهارا وليلا ؟ ضحكت هذه المرة بمفردي .

سألتني :

ـ أين تركيا في الأدب الحديث في مصر ؟

قلت :

ـ قطعت العلاقات بحروب .

ثم أكملت :

ـ لا أحد يسعى إلى فتح ملفات قديمة .

هزت رأسها ، قالت :

ـ هذا مبرر في السياسة أما في الأدب ..

قاطعتها ، قلت :

ـ قلة تتحدث اللغة التركية حاليا . بينما الأجيال السابقة كانت تتقن التركية القديمة والحديثة ، تنكرت تركيا لجيرانها ، فتنكر العرب لها عن قصد .

لم توافقني ، لكنها لم تناقشني ، بدت وكأنها سوف تدرس أقوالي على مهل ، سألتني عما يشغلني ؟ قلت : ابن أختي يود هدم المكتبة على رأسي . قالت : المخطوطات والمراجع القديمة لها أسواق وعليها طلب شديد بسبب زيادة معدلات التضخم . هل يعمل في المزادات والسمسرة ؟

المزادات والسمسرة ، ضحكت ، قلت :

ـ طبيب عظام مشهور .

الدكتور سامح يتابع البور صات ويضارب علي الأوراق المالية ، لكنني لا أفهم العلاقة بين التضخم وتبديد مكتبة زوغلي باشا الكبير . البور صات والتضخم المالي ، ما علاقاتهما بمكتبة بها مخطوطات قديمة ؟ هل أبدأ صباحي بقراءة الصفحات الاقتصادية وأخبار البور صات ؟ هذا الولد عاش في لندن ، شيطان ، يعرف ما لا أعرفه ، غدا أسأله عن آخر أسعار البورصة بالتليفون ، أترك كتب التنوير وكتابات المعتزلة ، وأتفرغ لأسعار الأسهم والسندات .

سألتني عن أدباء يتحدثون التركية من الشباب ، أعرف متخصصين ، لكن أدباء شباب كلا ، قلت لنفسي : مهمتك يا عابد في السنوات المقبلة استكمال المراجع التركية ، الفتاة معها حق ، أليس غريبا أن تضم المكتبة مخطوطات فارسية وعشرات المجلدات والمراجع بينما تغيب عنه المراجع التركية . كيف حدث ذلك ؟ جدي زوغلي باشا الصغير كان يتقن التركية والفارسية إتقانه

العربية ، وكذلك أبي وأمي ، وفي البيت كنا نتحدث التركية إلي جانب العربيـة والفرنسية ، من بدد تلك المراجع التي رجعت إليها في صغـري وشـبابي ؟ سؤال غاب عني في زحمة انشغالي بتحقيق الكتب . لماذا أهملت يـا عـابد ؟ تسلمت المكتبة من أبي في أواخر أيامه ولم انتبه لـهذه المسـألة . إذا عـرف سامح هذه الواقعة صنع فضيحة . هذه المراجع ضاعت في عهد أبي .

شغلتني همومي عن الفتاة . سرحت طويلا . عدت وجدتها تمسك يـدي . مالت برأسها نحوي . ابتسامتها حلوة . شفتاها رقيقتـان ، يجعـلان لحديثـها طلاوة . استمع لها : تحدثني عن الإنترنت وضرورته للمكتبة . سوف ترسـل لي المراجع بالبريد الإلكتروني .

أمور لا قبل لي بفهمها ، ما علاقة ؟ كيف ؟ ضياع المراجع التركية شغلني عن حديثها . دنيا زاد عملت قبلي بالمكتبة ، والآداب التركية تخصصها ، لعـل هذه الكتب في حوزتها ، ناولتني اليزابيث ورقة صغيرة ، قالت : عنواني علي الإنترنت ، رموز كالشفرة السرية : حروف . نقاط . وفـي نهايتـها كـوم . ضحكت ، قالت : النقطة لها أهمية الحرف، الكمبيوتر لا يعرف التأويل مثـل المعتزلة ، ولا الحدس مثل بيرجسون ، لغته قاطعـة مانعـة كـالخوارج ، لا يعرف لغة المتصوفة ولا ابن عربي .

ضحكنا .

الدكتور سامح يتابع أبحاثه علي الإنترنت ويتصل بمراكز أبحاث . جيـل يمتلك قدرات عجيبة لهزيمة الجغرافيا ولا ينقصه سوى معرفة التاريخ . يعمـل بطب العظام ويضارب في البورصات ، لكنني لا أفهم العلاقة بيـن التضخـم المالي وتبديد مكتبة زوغلي باشا ، نسيت مبادئ الاقتصاد يا عابد .

اليزابيث لم تنتقد مسلك سامح أمامي ، وغاظني صمتها ، جيـل تربطـه وشائج سرية لا نعرفها ، نحن الشيوخ ، فات زماننا يا عابد وخبرتنا لا حاجـة

لهم بها ، ربما إذا قابلته اليزابيث تعلقت به ، ووافقته علي بيع المكتبة ، كلا ، من أدبها لا تحشر نفسها في مسألة لا تخصها ، يا ليتني صحبته معي لمقابلة اليزابيث .

أمسكت بيدها الأخرى كما تمسك بيدي . طلبت منها الإشراف على المكتبة . قالت : أفكر . ثم أضافت : مراجع مكتبة زوغلي باشا يجب وضعها علي الإنترنت . أخاف هذه السيرة . تحدثني كناظرة مدرسة . هل يصح أن أقبلها أو أنظر إلي شفتيها ؟ كلا . لا يجوز . شفتاها تنطقان بكلام عجيب . ما هذا الكلام ؟ اسمع يا جدي . شفتان تنتميان إلي قرن جديد . ناولتني بقية البحث . نزلت بعيني إلي المائدة ، أبعدت عيني عن رقبتها وصدرها . أري الأوراق فقط . ربما أقدم لها فكرة صالحة .

فرغ حديثنا .

حماده الجرسون يقف في نهاية الصالة ، وعيناه علينا ينتظر الانقضاض . يتابعنا ويبتسم . الجرسونات لهم حاسة غريبة ، اقترب منا بعد أن سلمتني البحث . أدرك ابن الحرام انتهاء حديثنا ، ابتسمت له اليزابيث ، تعرفه ، نعم . تعرفه أخفت أمره عني ، قامت . قبلتني أمامه ، خجلت . عرقت . تمنيت أن يكون عشيقها ، هذا الجرسون سوف يشيع أنني أعشق فتاة في سن حفيدتي ، أقابلها في الفندق وتقبلني . طلبت مني أمامه العناية بنفسي ، ثم ودعتني في عجلة .

اليزابيث على موعد مع هذا الجرسون خارج الفندق . هي تعرفه فقط ، ليس بصاحبها أوعشيقها . نعم . استراح بالي .

* * *

الفصل الرابع

عابد عبد المتجلي زوغلي

مات الدهشورى بك وعلي لسانه كلمتان : إما وإما . مسكين . القصد . رحمه الله . كلمتان قتلتاه . ابنه سامح ورث عنه العناد في الحق . كلا . هذا جيل قلبه يعرف الطمع . أجلت اليوم جولتي الصباحية بسبب البرد . لا موعد معي مع اليزابيث وتقاعست عن الخروج . في البداية اتصلت بورشة التجليد ؟ وقبل البدء في قراءة الفصول الجديدة التي انتهت اليزابيث من إعادة صياغتها ، ألقيت نظرة علي الصفحات الاقتصادية في الجرائد القومية والمعارضة أيضا . طوال عمري أبدأ يومي بقراءة صفحة الوفيات . اللعنة عليك يا سامح ، دفعتني إلى ما لا أحب ولا أود معرفته . لكنني سايرته . أحاول الفهم . ذبذبة في أسعار الأوراق المالية ، لماذا ؟ لا أعرف . صمت المحللون . تفاءلت بهذه الذبذبة واعتبرتها بادرة خير . أهملت الجانب الاقتصادي في المكتبة منذ وفاة والدى . اتصل ببعض المعارف للحصول علي المراجع الأساسية مثل تقارير البنك الأهلي والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي . هذه التقارير كان يتابعها أبي .

خرفت يا عابد .

جولتي الصباحية تكسبني نشاطا في يومي ، أسير علي النيل حتى منطقة فم الخليج ثم أعود مخترقا شارع القصر العيني.أرى المدينة في ساعات

قيامها، وأعود إلى المكتبة قبل الثامنة والنصف لمزاولة عملي. وبين الساعة الرابعة والخامسة مساء لي جولة أصل فيها إلي مشارف العجوزة سيرا علي الأقدام ، لكنني في الخريف اكتفي بجولة واحدة في الصباح أو المساء ، بسبب حساسيتي للبرد . أتحمل برد الشتاء القارس وحر الصيف ، ولا أتحمل تقلبات الخريف .

ربيع وصيف وخريف وشتاء ويقبل قرن جديد . بسطاء الناس لا يخافون القرن القادم . الخائفون حفنة من المفكرين مثلنا ، أما بقية الناس فيدخلون القرن القادم في طمأنينة وقد شغلتهم احتفالات لا أول لها ولا آخر ، طبل وزمر وشعارات . إذا قدر لي العيش ، احتفل بقدوم أول يوم في القرن الجديد . أنعس ليلتي وأقوم وأدون التاريخ مثل بقية الخلق ، الفاتح من عام ٢٠٠١ . في تلك اللحظة فقط ربما أتنبه لما جرى وفات ، ربما أقول متحسرا، سرقتنا السكين يا عابد، لا تعلم الناس ولا محيت أميتهم. الريف دخله الدش وبقى علي حاله ، الوادي الضيق أصبح أكثر ازدحاما علي الرغم من شبكات المترو والطرق الدائرية وو ..

الحكاية طويلة يا عابد ولا أحد يسمع .

دنيا أخرى تنتظرنا : هندسة وراثية . استنساخ . صناعة أطفال حسب الطلب . غزو فضائي مجنون .محطات فضائية متحركة في الكون . أقمار صناعية تنقل همسات الأحبة وتصريحات الحكام ليل نهار ، ماذا تبقي لنا من عالم قديم ؟ لا شيء .

طفل ينتظرك يا عابد في هذه السن المتقدمة . استأجر رحما في جنوب أفريقيا بالإنترنت وليس بالبريد ، من العين إلى العين ، بعيدا عن رقابة مصلحة البريد ورقابة المشايخ ، طب متقدم . سمراوات وشقراوات علي استعداد لتأجير

أرحامهن . خلية من قدم ست نفوسة ويصل الطفل بعد تسعة أشهر كالنعجة دوللي. طفل عمره شهر أو شهران، وخلاياه عمرها سبعون عاما. هكذا قرأت، وهكذا فهمت . والله أعلم . ربما الدكتور سامح تشغله هذه القضايا ، ولا يناقشني فيها أو يطلعني عليها ، يظن أنني عجوز مخرف ، اهتماماتي تعود إلى القرن الرابع الهجري أو السادس الهجري على الأكثر ، أنا أنتمي إلى بداية هذا القرن في معارفي السياسية . لكنني أتابع ما يدور حولنا ، المعادلات الرياضية لا تهمني ، ولكن قيم العلم هي التي تشغلني ، الاستنساخ ليس معادلات بحتة أو تقنيات ، لكنه يحمل في طياته مجموعة قيم .

اليزابيث هي الأخرى لم تحدثني عن مخاوفها من القرن القادم ، ربما هذا الجيل لا يخاف هذا التقدم الواقع مثلنا نحن أبناء بدايات هذا القرن .

في السابق خاف الناس من القطار .. ابتسمت .

شغلنا بالفكر السلفي وتركنا مشاكل العصر . البحث في صفات الله عز وجل وعين ذاته، قضايا شغلت المسلمين ، وقامت من أجلها حروب ، وما يبرزه الدكتور أحمد أبو الشرف في دراسته، هو تتبع منارة التنوير في العصر الوسيط على مستوي العالم .

الإنسان في مواجهة الكون ؟ مفتاح القضية .

اليزابيث ابنة هذا العصر، تعيش أحداثه من النعجة دوللي إلى البريد الإليكتروني . ترسل لي كتبا بالبريد الإليكتروني ، كيف ؟ وأين رقابة البريد ؟ لا بد أن شيئا قد حدث في العالم . التنوير لا علاقة له بمعرفة التكنولوجيا ، كما أن استخدام التكنولوجيا لا علاقة له بالتنوير، فهناك بغال تقود سيارات . التنوير له علاقة بصناعة التكنولوجيا . نعم . هذه هي القضية .

الدكتور أحمد أبو الشرف عالم هندسة وراثية ويفهم في الاستنساخ النباتي والحيواني والبشري ، وله تجارب علي تخليق محاصيل جديدة ومقاومة آفات

زراعية . بحوثه في تطور منظومة القيم وعلاقتها بالتقنيات الحديثة فذة ، النعجة دوللي خرجت من صفحات ألف ليلة وليلة ، من قمقم شهرزاد فاتنة الزمان . والسؤال : من فتح القمقم يا عابد ؟ شهرزاد الجميلة أم شهريار المجنون ؟ لا أعرف . هذا هو السؤال ؟

في ساعة قيلولة نامت فيها العفاريت الزرق ، اغتالت سيارة مندفعة أمي وهي واقفة علي محطة ترام . من أين قدمت السيارة ؟ من قادها . لم يظهر شهود ، كل ما تبقى لنا ، موتها ، مكومة وغارقة في دمائها وقد تهشمت عظامها : ميتة . وتأخرت مراسم التحقيق بسبب عطلة العيد .

خروج والدتي نازلي هانم الدفتردار صبح ذلك اليوم كان معروفا لنا ، أما تخلصها من سائق سيارتها ووقوفها علي محطة ترام في تلك الساعة بمفردها ، فلم يكن مفهوما بالمرة . وكما في حكايات ألف ليلة وليلة ، جاءها الموت وواجهته بمفردها .

هل صرخت أمي والسيارة تدهسها ؟ أم صمتت لتسمع وشوشات الطريق ؟ أم جرى ذلك كله في لحظة خاطفة ؟ لا أحد منا يعرف ولا المحققون أيضا ، لكنني وكنت في بداية شبابي كنت على يقين بأن أمي كانت تود الموت على هذا النحو ، موتا فجائيا في عز صحتها وعافيتها ، لا مرض ولا عجز . وجاءها الموت كما أرادت ، فجائيا وداهما ، أرادته علي هذا النحو وهذا ما أصابها ، أليس ذلك مدعاة للرضا بدلا من الحزن .

أبحر أبي في رحلة أهوال بحثا عن قائد السيارة ، وسحبني معه . رحلة تجمع بين الحقيقة والوهم ، ومع مرور السنين تخليت عن يقيني وصدقت أوهام أبي وأخواتي البنات وأقاربي ، وأبي لم يكن ساذجا ، فهو مفتش تحقيقات ورئيس نيابات ، ولولا قيام حركة الجيش ومعاداتها للوفد فيما بعد لأصبح

وزيرا للعدل ، لكنه في تلك السنوات، قبل حركة الجيش ، كان ينسج حكاياتـــه الخاصة ليصدقها .

بدأت رحلتنا بالوقوف عند محطة الترام في آخر شارع القصر العيني ، كل يوم ، ننتظر ، علي أمل، أي أمل ، لا أعرف . أمي ليست غريقة وسوف يطفو جثمانها ، أو مفقودة وسوف ترجع ، بل ماتت وأقمنا لها جنازة تليـــق بعائلـــة زوغلي باشا . جنازة حضرها كبار القوم في السراي والأحزاب والجمعيـــات الخيرية ، ووصلت برقيات عزاء من كافة أنحاء القطر المصري ومن السودان أيضا . أمي ماتت . رحلت عن عالمنا . ماذا ينتظر أبي ؟ لا أحد يعرف مـــاذا يدور في رأسه ؟ وأنا رفيقه في رحلة الأهوال لا أجرؤ علي ســـؤاله ، فـــهو أبي ، وأنا أصغر أخواتي .

في أول يوم قال لي : لا تيئس يا عابد . سوف نعرف الحقيقة مهما طـــال الزمن ، الموتى يتألمون لمفارقة الأحبة ولهم علامات . المهم . اليقظة .

ماذا يود أبي ؟

سحبت أمي مبالغ كبيرة من البنك قبل العيد بيومين ، وظن المحققـــون أن الحادث مدبر ، وكشف أبي لهم ما كانت أمي تحرص علي ســـتره ، والدتـــي تشرف علي صناديق نذور ، تزود بعض العائلات باحتياجات الشتاء ، تتكفـــل بمصاريف تلاميذ ، وفي ذلك اليوم بكرت بـــالخروج ، ذهبـــت مـــع الســـائق بالسيارة إلي السيدة زينب ، ثم إلي منطقة الأزهـــر والحســـين ، زارت عـــدة بيوت ، والتقت بسيدات وترأست اجتماعا في بيت أحداث ، ثم صرفت الســـائق وعادت بمفردها إلى منطقة فم الخليج ووقفت علـــي محطـــة تـــرام . تنتظـــر قدرها ، أليس ذلك عجيبا ؟

لماذا وقفت أمي علي محطة ترام في تلك الساعة ؟ ظل هذا السؤال يشغل المحققين ولم يجب عليه أحد ، لا المحققون ولا أبي مفتش النيابات ، ولا أقاربي ، بينما الحكاية في رأيي كانت واضحة ، امرأة وزعت صدقاتها ، أنهت مهمتها ، وقفت راضية تنتظر الموت ، ما الغرابة ؟ هذا ما جرى .. لكن القوانين الوضعية لا تعترف بالموت علي هذا النحو ، وتتنكر لخبرة البشرية الطويلة بسنوات الخليقة في التعامل مع الموت ، الموت في القوانين الوضعية له أسباب فسيولوجية وجنائية يتعين الكشف عنها . وطالت التحقيقات وامتدت يد المحققين إلي حسابات أمي لمعرفة ما أخرجته في يومها من صدقات ونذور ، ومطابقة ما وجد في حقيبتها مع ما فرقته في يومها وما سحبته من البنوك .

يقبض أبي علي الريح ، ويتابع إيحاره ، قطعنا شوارع ودخلنا أزقة ، جلسنا إلي معلمين . سمعنا حكايات وحكايات . وصادقنا أناسا من قاع المدينة ، وعرفت فتيات بلد من المنيرة وفم الخليج ، أحببت كثيرات منهن وعشقت واحدة ، عائشة ، ومن منطقة الدواوين عشقت واحدة سهاد . وبمرور السنين تبدل حال الدنيا وتبدل حالي ، طرد ملك وقامت ثورة ، وفي نهاية المطاف ، وقبل ساعات من رحيل أبي ، زعم أن أمي أطلعته علي القاتل ، ومات وابتسامة علي وجهه .

لم يكن أبي كاذبا ، لكنه توهم . هل يكذب أحد ساعة طلوع الروح ؟

سمعته بنفسي وهو يقول وفمه نصف مغلق ، رحمها الله أطلعتني علي رسمه واسمه وهيئته . سمعته كما سمعه الآخرون ، بكت أختي الكبرى وصرخت الثانية ، أما دنيا زاد فقد لعنت زوجها الدهشوري بك . قالت أمامنا بصوت مسموع : اللعنة عليك يا دهشوري في الدنيا والآخرة .

في تلك اللحظة فقط ، بانت خيوط الحكاية وأدركت أبعادها .

شغل أبي حتى الدقائق الأخيرة من حياته بقاتل أمي ... يا لها من قسوة .

حقيقة مات أبي راضيا في لحظة النهاية ، أو لحظة الدخول في الأبدية . عرفت قدر معاناتة بسبب هذه الوصية الغريبة ، وبسبب عناد الدهشوري بك ، صمت خمسة عشر عاما ، وبعدها لم يهدأ .

والحقيقة أننا لم نفلح في معرفة القاتل أو رقم السيارة .

رن التليفون ، سألني سامح عن المستشرقين والمستشرقات ، قال :

ـ مدير شركة بان أكس كوم العالمية يود مقابلتك يا خالي .

سألته ، لماذا ؟ قال : بيزنس .

رفضت .

زيارة سامح أمس لم تكن بريئة . الولد يتفاوض من ورائي علي شيء . قمت إلي خزانتي . أنقل الخزانة إلى غرفة نومي بعيدا عن أنظار المترددين علي المكتبة ، ناديت علي نفوسة بصوت عال ، صرخت فيها ، والبنت قريبة مني ، قلت : السائق ومجموعة رجال ، سايس الجراج والميكانيكي . تنقل الخزانة إلى غرفة نومي .

فهمتني البنت على التو ، قالت : حاضر .

تركت صفحات بحث اليزابيث مؤقتا . شغلت بنقل الخزينة وجمع الأوراق الخاصة . المصائب لا تحل فرادى ، وهذه مصيبة من مصائب العولمة التي يتحدثون عنها . مالي أنا وشركة بان أكس كوم العالمية . هل تعمل هذه الشركة في تحقيق التراث ؟ أنا لا أعرف الإنترنت ولا البريد الإليكتروني . أستخدم التليفون كما يستخدمه بقية الناس . الفاكس شبه معطل . لا أمتلك أوراقا مالية ، ولا أضارب في البورصة . لا أفهم في الهندسة الوراثية . أكتب أبحاثي بالقلم الرصاص كالسلف الصالح ، ولا أستخدم كمبيوتر .

هذه حيثيات براءتي من العولمة . ما لي أنا وهذه الشركة ؟

القصد لن أتنازل عن المكتبة ولن أبيع العمارة .

في السابق _ قبل العولمة _ كانت مشاكل أبي مع الدهشوري بـــك تتعلـــق بتفسير الوصية . رجل صالح يود العدل المطلق علي الأرض ، لا يطمع فـــي حكم محكمة ولا تعويض ، والآن اختلفت الأمور ، تلاحقني شـــركة عـــابرة للقارات ، لا أعرف عنوانا لها . عليك اللعنة يا سامح ...

* * *

الفصل الخامس

نقيب عــلاء العــتر

مهمة ثقيلة علي قلبي .

وصلت الطابق الأخير بالمصعد في لحظات، ثم نزلت خمسة طوابق علـــي السلالم متريثا في تكاسل ، في أكثر من عشر دقائق ، وفعلت ذلك كله بحكـــم العادة ، وليس بهدف المعاينة أو التفتيش ، فقد كنت يائسا من هذه المهمة التـــي لا لزوم لها ، سوى جرح مشاعري والإساءة إلى أناس أحببتهم . أهبط درجـــة يأخذني زمن مضى ، والمس أشيائي الصغيرة في حب . أشيائي التي تركتـــها فجأة ، ولم أرجع إليها مرة أخرى طوال سنين عديدة .

ها أنا أرجع إليها ولكن متخفيا . لا أفصح عن مهمتي . رجعت إلى الوراء عدة عقود . ومع انفراج الباب بعد دقة الجرس ، دلفت إلي عـــالم طفولتـــي . رأيت نفسي ، فتحت صفحات أغلقتها السنين ، أمسكت ببدايات خيوط ضاعت مني ، للأسف ، في زحمة الحياة .

بموت خالي المفاجئ في هذه المكتبة ، قطعت صلتي بأهلها . وها أنا بعـــد كل هذه السنين ، أحضر للمعاينة والتفتيش في جريمة تهريب آثار . حضـــرت مكرها . ليس من السهل التشكك في ذمة أحبة ، التفتيش على ملاعب الطفولـــة المشبعة بالبراءة فيه خيانة لأيام عمري السابقة والقادمة .

تمسك بالباب شغالة سمراء ، عودها ملفوف . قطعة نحت فرعونية ، وجه تقاطيعه فاتنة ، جميلة ، عينان واسعتان ، أنف دقيق قائم ، وعلي فمها ابتسامة ضاحكة تزين شفتين ممتلئتين . كم فتنني هذا الوجه في صغري ؟ وكم تعلقت به وحلمت به ؟ هذه نفوسة , كانت تلاعبني في صغري وتضربني وتأخذني لنلعب تحت ، وتعلمني القراءة ، وتطعمني . المدخل تبدلت أركانه ، دواليب الكتب زادت . سألتها عن الأستاذ عابد عبد المتجلي ، رحبت بي .

الرجل جالس في ركنه المفضل . أمامه مراجع ويدون شيئا . صلعته كما هي . عرفته من أول وهلة ، أحسست به في جلسته المفضلة قبل أن تسقط عيناي عليه . نقص وزنه كثيرا ، فيما عدا ذلك لم تغيره السنون ، سألت : هل أجلس ؟ قال مرحبا : تفضل .

في سنوات الحضانة كان خالي يصحبني إلي هنا ، وفي مرات يأخذني قبل خروج الصف ويأتي بي ، هل يتذكرني الرجل ؟ جلست علي الطرف الآخر من المائدة ، بيننا مراجعه . رحب بي الرجل ولم يمد يده لمصافحتي ، وكان ذلك غريبا منه ، هل يؤلمه القيام ؟ أم تشغله كتبه . دعاني إلى الجلوس وتركني لشأني ، وكأنني جئت للمطالعة وأعرف طريقي بين دواليب الكتب .

عجوز كما أفادت التحريات . نحيف القوام ، قليل من اللحم علي هيكل عظمي متين . في جلسته استقامة كعهدي به ، في السبعين من عمره ، كلا في الرابعة أو الخامسة والسبعين . عدة شعيرات بيضاء تغطي رأسه من الخلف . يضع نظارة أنزلها عندما حادثني . هادئ الطباع ، شديد الوقار ، رجل له هيبة وحضور. كان مشغولا ومن جانبي لم أفصح عن مهمتي . بعدها ، قال : تفرج علي المكتبة ، وبعدها نتكلم .

أراحني .

لمحته من جنب وأنا أميل برأسي لفحص الكتب الواطئة ، يضع حذاءه ولا يجلس بالشبشب كما ظننت في البداية ، منهمك في قراءاته وكتابته ، ولا يتابعني . مكتبة عامة . لا ضيافة ولا تطفل . كنت أحضر لرؤية مجلات الأطفال المصورة وتلوين الصور ، لكن اتخاذ المكتبة ستار لعلميات تهريب الآثار ، هذه غير معقولة . هذا رجل فاضل من بقايا زمن مضى .

أتذكر أم أرى ؟ اختلط الأمر لتلاحم الصور . ضاعت فروق السنين . قطع النسيج القبطي في مواضعها . وكنت في الزمن القديم لا أعرف فصلها من أصلها ، نسيت ما كان يقوله خالي عنها ، تماثيل خشبية تعود إلى الأسرتين الثالثة والرابعة . وهذا التمثال أذكره . لماذا ؟ لظرفه . كنت أراه فأضحك ، وتقول نفوسه عنه ، هذا عفريت يحرس المكتبة ، ويقطع يد السارق . وأنه يتجول ليلا في المكتبة وينزل إلي الكورنيش ويذهب إلى أهرامات الجيزة ويبكي هناك . وكنت لا أخاف منها . ولا أصدق هذه الحكاية ، لماذا يذهب التمثال إلى الجيزة ، ويبكي هناك ؟ غير معقول . وكان خالي يقول : نفوسة طيبة . لكنها عبيطة . هذه الحكاية أنكرتها في صغري ، لكنني أصدقها الآن بعد أربعين عاما أو خمسين عاما ، يذهب التمثال ويبكي هناك . نعم . فحالة الآثار كلنا نعرفها .

موائد وكراس من العصر الفاطمي . مجلدات أغلفتها مذهبة . مكتبة ومتحف . موسيقي المندولين تأتي خافتة وناعمة . الناس تتسلى بسماع تقاسيم العود . الكمان . القانون . لكن المندولين ، كلا . سألت : هل تحب يا أستاذ عابد موسيقي المندولين إلى هذا الحد ؟ قال : هذه لها حكاية . ولم يكمل . كان مشغولا ، وسكت أنا .

هذه هي الحكاية التي تهمني أنا ، حكاية المندولين . هذه هي حكاية خالي الموسيقار سعيد علي بهجت الذي قضي في هذه المكتبة ، يا للغرابة ، أما مسألة تهريب الآثار فهذه خرافة . تركته علي راحته ، لا أتعجل الحديث ، قال :

ــ الدنيا برد اليوم . قهوة أم عصير برتقال . قلت : قهوة من فضلك . نفوسة تضع عينيها علينا وتتابعني ، سألت : مضبوطة أم سادة ؟ قلت : مضبوطة .

لم يسألني عن سبب زيارتي ، قال :

ــ المكتبة بها مراجع تعود إلي القرن السادس الهجري ، مخطوطة من ألف ليلة وليلة تعود إلي العصر العباسي . مخطوطات في الفقه ، خاصة في فكر المعتزلة ، مراجع في التاريخ الإسلامي ، إلي جانب كتب السير والأدب والشعر .

هذه كلها أمور أعرفها ، ولا تهمني ، حرصه علي سماع هذه الموسيقي ، موسيقي خالي ، هو الذي يشغلني ، لماذا ؟ هذه الأنغام تمسك بي ، تدفعني لسؤاله عن خالي . هذه موسيقي لا أسمعها منذ سنوات بعيدة ، ماذا يرميه عليها ، علمني خالي الإمساك بهذه الآلة قبل السابعة من عمري ، لكنني لم أفلح في الموسيقي ، ومات خالي وضاع اسمه من سجلات الفن . شغل بآلة غريبة تختلف عن العود والكمان والقانون ، ولما مضى اندثرت أعماله . من أين حصل الأستاذ عابد علي هذه التسجيلات ؟ في ذلك الحين كان التسجيل علي اسطوانات كبيرة ٣٣ لفة ، وسجل خالي أربع اسطوانات قبل موته تتضمن بعض أعماله . إذا تحريت عن هذه الموسيقي كشفت عن شخصيتي . الأمور لا تؤخذ بظواهرها ، ربما المكتبة ستارٌ . تابعت جولتي في صمت ، ونغمات المندولين تحيط بي . تمسكني في رفق . نغمات عذبة كالنسيم ، كالبحر

الرائق . وفي بعض المواضع مع نهايات اللحن ، تصـــرخ فـــي أذنـــي : لا تصدق . لا تصدق .

صورة خالي المعلقة في برواز مكللة بالسواد . خالي لم يكن فـــي مســلكه سوى الاستقامة ، رجل أمواله بين يديه لينفقها وليست في جيوبه ليدخرهـا ، لا علاقة له بمهربي الآثار أو مهربي أي شيء آخر . هل بدأت عمليات التـهريب بعد رحيله ؟ لا أظن .

نفوسة تتابعني من بعيد . بنصف عين وهي نائمة . تتحــرك خلفــي لأداء أعمال صغيرة ، ترتيب ورقة ، مسح بقعة تراب ، بسط حافة سجادة ، لكننـــي في مجال رؤيتها ، لا تغفل عني ثانية واحدة ، وربما إذا دخلت الحمام دخلـــت ورائي .

هذه الشغالة مفتاح القضية .

بدأ الرجل يتابعني .كشفتني نفوسة وغمزت له . لست باحثا ولن أتظــاهر بالقراءة . لن أخدعه . سألت : هل توجد قطع أثرية أخرى ؟ قال : كـــلا . بعدها أضاف : هذه مجموعة زوغلي باشا الأثرية ، مجموعة مسجلة وبياناتـها معروفة في الدوريات والكتب ، عدد القطع مائة وثلاثون قطعة مختـــارة مـــن سجل التاريخ الحافل ، كل قطعة دارت حولها دراسات ودخلت الموسوعات .

أجاريه في الكلام ، وقلبي مشغول برحيل خالي ، الرجل لا يبالغ في تقديره للتحف والكتب ، وهذا ما جئت من أجله . سألني عن اهتماماتي ، ادعيت أنني مشغول بدراسة الطيور في الحضارة المصرية القديمة . سألني : والموسيقي ؟ قلت : هذه هواية .

شاهد الرجل لهفتي على الآثار ، قال :

ـــ المجموعة مسجلة وفقا للقوانين وآخرها قانون صدر في السبعينات .

أعرف هذا كله بحكم عملي ، لكنني تركته يتكلم .

يستهويني العزف الشجي . ألحان سمعتها في طفولتي وصباي من خالي أو من أعضاء فرقته أثناء تدريباتهم . لا أذكر أنني سمعت موسيقي هنا في المكتبة من قبل ، أدخل الأستاذ عابد هذه الموسيقي إلى المكتبة بعد رحيل خالي ، ليتمتع بصحبته ، من يمتلك هذا الوفاء لن يبخل بالكلام . كيف مات خالي ؟ هل أصابته سكتة قلبية ، وهو في المكتبة ؟ أم هي جلطة في الدماغ ؟ هل تألم وهو يلفظ أنفاسه ؟ هل أجريت له إسعافات ؟

سألني : هل أحببت المكان ؟ قلت : نعم . قال : ربما هذه المكتبة لن تفيدك كثيرا في دراسة الطيور ، ولكن هنا يمكن التعرف على وسائل البحث ، وإذا أردت مرجعا خاصا توجد ميزانية للشراء من الخارج .

شكرته .

قبل خروجي ، طلبت منه صورة الموسيقار سعيد على بهجت لمدة أربع وعشرين ساعة ، سألني : من أقربائه . قلت : نعم : قلتها ولم أزد . أعطاني الصورة ؟

هذا الرجل شاهد خالي وهو يلفظ أنفاسه ، وسوف يحدثني عما جرى له . غادرت المكتبة وصورة خالي في يدي .

* * *

الفصل السادس

نفوسة بنت النخيلى

جرى ذلك كله في لحظات . تناول الغريب صورة المرحوم سعيد علي بهجت وهرب . كيف ؟ لا أعرف . سألت الأستاذ ، هل يعرف اسمه أو مهنته ؟ قال : كلا . جريت وراءه لأسأله عن اسمه ومهنته ؟ لم الحق به . رأيته من بعيد يتحدث مع أفندية . ناديت عليه تجاهلني ، وركب سيارته قبل أن الحق به .

أسرع بالفرار .

سألت سايس الجراج عن الأفندية ، قال : مخبرون . هذه كبسه . وقع قلبي . جريت إلى أعلى . تركت الأسانسير وصعدت على السلالم . كنت خائفة . خطفت كل ثلاث سلالم في سلمة . أرمح . قلت للأستاذ عابد : كبسه والمخبرون تحت . ضحك . قلت : الرجل الغريب أخذ الصورة وركب عربية . قال : سوف يرجع غدا أو بعد غد .

لا داعي للخوف يا نفوسة علي الصورة . الأستاذ عابد قلبه دليله . الرجل سوف يعود غدا أو بعد غد على الأكثر . الأستاذ يعرف الناس من أول لحظة ، مخه كبير ولديه مفهومية واسعة . قال : الرجل سوف يعود . يعني يعود . أنا أيضا إحساسي والذي لا يكذب يقول أن هذا الرجل سوف يعود ثانية ، ليعيد الصورة وليراني . فقد أعجبته . نعم . أعجبته . رأيته وهو

يفحصني بعينيه من فوق إلى تحت . آه لو كنت لحقت به أسفل العمارة . كنت عرفت اسمه وعنوانه واصله وفصله . لكنه هرب . خاف من جرجرتي له في الكلام . هذا رجل ليس من صنف الطلبة ، هؤلاء دائما في عجلة . يأكلون الكتب بأعينهم في قرف ، همهم النجاح وليس العلم . ويا ويلي إذا شغلت أحدهم بسؤال أو عطلته ، هؤلاء ليس لديهم وقت للحديث ، يقرؤون مثل الماكينات ، بينما هذا الرجل لم يفتح كتابا ولم يطلع علي الفهارس .جاء يمتع عينيه بالتحف ، ويمتع إذنيه بموسيقى المرحوم سعيد علي بهجت . وربما يا بنت جاء ليتعرف علينا فقط . ابن حلال . سمع عن مجموعة زوغلي باشا وأمينة المكتبة نفوسة بنت النخيلي . جاء . نعم .

الأستاذ عابد لا يفرط في ورقة . كيف سلمه الصورة ولم يأخذ بطاقته ، على الأقل يسأله عن اسمه وعنوانه ؟ هذه غريبة . ليست مفهومة . الرجل كان لطيفا ، وربما يعرفه الأستاذ عابد ، ولكن الحذر واجب . شاب وسيم في عمر الدكتور سامح , لكنه يبتسم ويضحك وليس تعيسا مثله . رماني برمش عينيه ، غمزت له ، رجل في رأسه فطنة ، رجل في وجهه عينان . رآني من الأمام والخلف فأعجبته . كان يراني في المرآة ، ولما ضبطته ضحك . لم ينزل عينيه كما يفعل الطلبة . هذه الجرأة تروقني ، وافتقدها في التلاميذ المفاعيص . ينظرون لي من تحت نظاراتهم ، وإذا ضبطتهم ، يخفضون رؤوسهم في خجل ، بعدها لا أحد منهم يدعوني إلي فنجان قهوة في جروبي ، أو ركوب فلوكة في النيل ، آخذ بالي من المكتبة وأعد لهم القهوة والشاي ، ومن عنده مغص أزوده بالنعناع الأخضر ، ومن رأسه توجعه أسعفه بالأسبرين .

شغالة وممرضة وأمينة مكتبة ، ولا جزاء ولا ثواب يا نفوسة . خدمة من أجل العلم ولوجه الله والوطن .

قلبي تعلق بهذا الرجل الغريب ، إذا دعاني إلي السينما ذهبت معه . لن أمانع . فيه شبه كبير من المرحوم سعيد على بهجت . قال : قريبه . المرحوم سعيد ، الموسيقار الكبير ، كان يأخذني إلي السينما ويدخلني الحفلة ويتركني ، كانت أياما وراحت لحالها يا نفوسة ، لم أذهب إلى السينما منذ وفاته ، تيتمت من بعده . والأستاذ عابد لا يذهب إلي سينما ولا يرى تلفزيون . يتمشى بمفرده في الشوارع ، مرة في الصباح ومرة في المساء . ويتركني لحراسة المكتبة ومساعدة الطلبة . الأستاذ عابد يقول : التلفزيون كله أفلام . كلا . رؤية الفيلم في السينما في العتمة وسط الناس علي شاشة عريضة . هي السينما . البطل يقبل البطلة تحدث هيصة . أضحك . قلبي يحدثني أن هذا الرجل سوف يزودني بتذاكر سينما ومسرح . حقيبته فيها تذاكر سينما ومسرح ، ربما يقف في شباك تذاكر ، كلا يا نفوسة ، هذا الرجل الأنيق الشيك صاحب سينما ، سينما خاصة ، هذا زمن الخصخصة . صاحب سينما وهوايته دراسة العصافير ، نعم ، العصافير ، اليوم يذهب إلى سوق العتبة ويأتي إلينا غدا بدستة عصافير ، كل الهوايات في العالم غريبة ، البعض هوايته صيد العصافير ، والبعض هوايته دراسة العصافير ، غدا يأتي بصورة المرحوم سعيد على بهجت ومعها دستة عصافير أطبخها بمعرفتي بعيدا عن طباخ الغبراء ، وآكلها بمفردي ، أنا أحب أكل العصافير والأرانب . والأستاذ يحرمني منها . طباخ الغبراء يقول : الأرانب طعمها زفر والعصافير كلها عظام

سألت الأستاذ : لماذا يهتم هذا الرجل بالعصافير ؟ قال : يــــهتم بـــالطيور وليس العصافير . لم أفهم قوله . أوضح : الطيور كثيرة منها الصقور والنسور والبوم والحمام واليمام وأبو قردان وغيرها . فهمت . يا قلة عقلك يا نفوســـة . كيف فات علي التفرقة بين الطيور والعصافير ؟ سحبتني رجولتـــه إلـــى دنيـــا ثانية ، اختلطت فيها الطيور بالعصافير . شغلني بعينيه . نسيت اسمي .

ناجيت الرجل الغريب ببيت شعر لم أكمله ، خف رأسك وضاع علمك يـــا نفوسة . مضت أيامك . لن أطبخ غدا عصافير . ويا مصيبتي لو جـــاء هـــذا الرجل ومعه أبو قردان أو بومة . أنا أكره أبو قردان وأخاف من البوم . هؤلاء الذين يدرسون الدكتوراة لهم أمزجة غريبة . أعرفهم من طـــول معاشــرتي لهم . الدكتور سامح وهو في الكلية كان يأتي إلينا بجماجم وعظام نـــاس فـــي حقيبته ، وإذا كان هذا الرجل مشغول بالطيور لا بد أن يحمل معه ... معه ...

أبو قردان لا جمع لها . هل أسأل الأستاذ ، عيب يا نفوسة .

قاموس لسان العرب في موضعه على الرف ، لكنني متعبة ، إذا حضر الأستاذ بوشناق الطهطاوي اليوم ، سألته ، عن جمع بومة . رجل فـــاضل ولا يبخـــل بعلمه . المشكلة أنني أصبحت سريعة النسيان ، لا نقش على حجر ، ولا حتـــى كتابة على التراب ، كل ما أتعلمه يروح لخاله . يا خسارة يا نفوسة . ضاعت أيامك يا نفوسة ، هذه أيام الدكتور سامح ، هبط نجمك وعلا نجمـــه ، يكتـــب روشتات ، يعمل أبحاث ، وأنت ..

اليوم موعد قدوم الأستاذ بوشناق الطهطاوي ، يأتي مرة في الأسبوع وهذا يومه ، يقرأ في صمت ، ولما يقف علي ماكينة التصوير أعاونـــه ويحدثنـــي ، يأتي من الصعيد ومعه زبدة وقشطة وتمر وعسل وقفص حمام وديك رومـــي من خير العزبة ، أوزع الهدية على أخوات الأستاذ وبناتهم وأولادهم بـــالحق ، نصيبهم قبل نصيب الأستاذ عابد ، لو جاء اليوم الأستاذ بوشـــناق الطـــهطاوي

ومعه أبو قردان ، شويته للدكتور سامح ، وقلت له هذا لحم طاووس . أكلة شاة إيران المفضلة .

جلست متعبة من نزول وصعود السلالم . جاءني الطباخ ، طلبت فنجان قهوة زيادة . الدكتور سامح لا يميز بين وجبة شهية ووجبة لا طعم لها . أمضى سنواته في لندن يأكل الكرنب والبطاطس المسلوقة . فسد ذوقه وضاعت شهيته . رجل لا يفرق بين لحم الضان والبتلو ، لا خير فيه . إذا وضعت له نشارة خشب في الطعام تناولها ، فمه لم يعد يستخدمه في الأكل ، ولكن في مراجعة الحسابات ، يدور لسانه ويعد الأرقام وهو يقلب شفتيه ويحركهما ككلب يتلمظ والعياذ بالله . آلة حاسبة ؟ كمبيوتر . الرجل الذي لا يستطعم طعم اللحم لا حمية له ولا شهوة في جوفه . ضحكت . عيب يا نفوسة . من يومه تعجبه البنت المفعوصة ، وبعد سفرته الطويلة ساءت أحواله . وصل من لندن نحيفا خائبا كما ذهب . لم يتعلم صيد الغزلان بالبندقية ولا حتي صيد السمك بالسنارة . نصحتيه بقراءة ألف ليلة وليلة لعل وعسى تنفخ شهرزاد في سرته ، قال : حكايات غبية لتسعد أغبياء .

غضب الأستاذ منه وأنصفني ، قال : ألف ليلة وليلة هي السجل السري للنفس البشرية . أعجبني القول ، ذهبت إلى مذكراتي وكتبت : قال الأستاذ عابد : ألف ليلة وليلة هي السجل السري للنفس البشرية .

ماذا قال الأستاذ أيضا ، حول ألف ليلة وليلة يومها ؟ نسيت . تناولت قهوتي . استرحت قليلا . سألني الأستاذ عابد عن الضيف ، قال :

ــ ألم يزرنا هذا الغريب في السابق يا شهرزاد ؟

قلت دون تفكير في العواقب :

ــ حدث يا مولاي .

* * *

الفصل السابع

الدكتور سامح الدهشورى

طالت جولة خالي الصباحية وأنا في عجلة . أود مناقشته في عرض شركة بان أكس كوم وقياس ضغطه . استعجلتني مارينا عدة مرات أمس . وحادثني مدير الشركة في شأنه . هم في عجلة وأنا أيضا . يعرضون شراء العمارة أو الجناح بأكمله . وإذا حصلت الشركة علي هذا الجناح سوف تخصصه لأبحاثي . هذا موعد عودته ، سألت نفوسة عن سبب غيابه ، قالت : مشغول مع المستشرقين والمستشرقات . أعرف . هي فتاة شابة اسمها اليزابيث . رأيتها في النادي أول أمس . الحديث مع كبار السن ليس سهلا كما كنت أتصور في السابق ، يتسربلون بالحكمة فإذا ضاقت عليهم الدوائر يطالبون بالشفقة .

الموسوعة الفرعونية الطبية التي اشتراها لي خالي عندما التحقت بكلية الطب في موضعها ، وإلى جوارها موسوعتان حديثتان صدرتا في أمريكا ، لماذا ؟ المخطوطات زاد عددها وكذلك المراجع القديمة ، تناولت الموسوعة الفرعونية وجلست في ركن كان محببا إلي نفسي في الماضي .

من جلستي رأيت صورة لي معلقة . صورة تظهرني خائفا ارتعد ، صورة صغيرة تعود إلى سنوات الشباب الأولي حين كنت طالبا في السنة الثانية في كلية الطب ، واستعد لاجتياز امتحان التشريح الذي يخافه الطلبة ، لماذا تعلق

هذه الصورة يا خالي ؟ وقد افتقدتها لسنوات طويلة . كنت في تلك الأيام خائفا إلي حد الموت من عدم التفوق . رأيت خوفي في الصورة وتذكرته . استرجعته . أمسكت به . خوفي الشديد في ذلك الحين دفعني إلي المقامرة ، راهنت علي ما املكه ، مستقبلي ، وكسبت الرهان ، قلت : إذا نجحت بامتياز تابعت دراساتي في كلية الطب ، أما إذا رسبت عدت إلي هوايتي القديمة ، دراسة الاقتصاد والعلوم السياسية ، ونجحت في الامتحان بامتياز ، وتابعت دراستي في الداخل والخارج ، وقد أصبحت مقامرا . الخوف علمني المقامرة ودفعني إليها ، قامرت على ما أملكه ، مستقبلي ، وكسبت ، عرفت هذه اللذة ، لذة المقامرة .

تعليق هذه الصورة لسنوات عديدة خفف من غلوائي . أمي حالتها سيئة ، ولن تسمح بمضايقة خالي مهما كان الأمر ، بل سوف تقف إلى جواره ضدي كما فعلت مع أبي . أمي لن تتخلى عن خالي في كل الأحوال ، وأنا لا أود الخروج عن طوعها وهي مريضة . لكن المسألة أكثر تعقيدا من كونها مكتبة قديمة وجناح في عمارة ، المسألة تتعلق بوصية جدي زوغلى باشا الكبير ، وقد تصدي لهم والدي بقوة ، لكنهم هزموه ، مات بحسرته مقهورا ، باكيا على غياب العدل .

مات أبي بعد وقوف أمي إلى جانب أخيها ضد مشيئته .

ليس في نيتي الانتقام لأبي بعد مرور هذه السنين ، لكنني أطمع في عودة الحق إلي أصحابه ،وصاحبة هذا الحق أمي دنيا زاد ، هذا الجناح بأكمله نصيب أمي ، لم تتنازل عنه لخالي ليشبع هواياته الغريبة بعد طرده من الحكومة واعتقاله ، وإذا كانت هناك وصية كما يقولون لزوغلي باشا الكبير ، فهذه الوصية انتهكت في عهد جدي عبد المتجلي بك . أمي وخالاتي جميعهن

يعرفن أن والدهن عبد المتجلي بك خرج عن أحكام الوصية ولم يقيد نفسه بنصوصها أو روحها .

جدتي أم والدتي قتلت ، وسرقت أموالها علي الرصيف ، ومثل بجثمانها ، ولم يعثر علي قاتلها ، ولهذا كان يتعين علي جدي أن يمنح المكتبة والجناح ونصف العمارة إلي صغرى البنات وليس للذكر ، وفقا لأحكام الوصية .

أمي ترى أن خالي مفكر وصاحب رسالة ، والحقيقة أن هذه المكتبة متواضعة ولا يمكن مقارنتها بالمكتبات التي رأيتها في لندن أو باريس أو برلين أو ليدن . هذه مجموعة شخصية من الأفضل بيعها أو تسليمها إلي المكتبة القومية في مصر ، فالدولة أقدر علي الحفاظ عليها ، أو بيعها لدولة عربية نفطية .

تركت الموسوعة الفرعونية وتحسست جيبي . العرض في موضعه داخل البلوفر . ورقه مصقول وملمسه دافئ . كلماته ساخنة . أربع ملايين جنيه دفعة واحدة ، ومليون جنيه على أربع دفعات عند التسجيل . عرض لقطة . هذا المبلغ يتيح لي الحصول علي قروض من البنوك لبناء مستشفى متخصص في طب العظام يضارع المستشفيات الأمريكية في تجهيزاته .

أول مستشفى من نوعه في الشرق الأوسط .

خالي يكتب قليلا ، ويجلس بالساعات يقارن النصوص القديمة . مهنة غريبة لا إبداع فيها ، وإن كانت تتميز بالدقة والمعرفة الواسعة بالنصوص المختلفة على مر العصور . صحته لا تسعفه حاليا بالبقاء ثماني أو عشر ساعات في بحثه ، يعمل ثلاث أو أربع ساعات على الأكثر ، ويمضي بقية يومه في القراءة أو مراجعة أبحاث الآخرين .

قدمت لي نفوسة فنجانا من القهوة ، سألتها عن سبب شراء خالي موسوعات طبية جديدة ، قالت : طلبها طلبة وطالبات من كلية الطب . تضايقت ؟ هذه أعمال صبيانية لا طائل وراءها ولا فائدة منها. طلبة كلية الطب في مقدورهم الحصول علي موسوعات من مكتبة الجامعة ، حقيقة هذه المكتبة توفر هدوءا تفتقده مكتبة الجامعة المزدحمة ، لكن وصية زوغلي باشا الكبير حددت رسالة المكتبة بخدمة الباحثين في علوم القرآن الكريم والتراث الإسلامي وليس في مبادئ التشريح والفسيولوجي والفارماكولوجي .

سألتني نفوسة عن والدتي ، قلت : كما هي . متاعبها تزيد مع قلة النوم وضيق الخلق .

زرتها اليوم . هذه رابع مرة أتردد عليها في ظرف يومين . طلبتني . ذهبت إليها . لكنني كدت أقضي عليها بسبب عدم فطنتي . وهذا ما يضايقني اليوم . أنا طبيب مهنتي تفرض علي الحفاظ علي أرواح الناس وليس القضاء عليهم . لكنني تبسطت معها ، وحدثتها عن خالي والقرد الذي يحرس الكنز في العزبة ، فغضبت ، وفقدت النطق . كان من واجبي رعايتها كما أرعى المرضى في عيادتي ، قبل أن أفتح فمي بكلمة أقيس ضغطها ونبضها ، وأسألها عن أحوالها ، لكنني أردت أن أتبسط معها . هي أمي وليست زبونتي . أردت اللعب معها ، هذا حقي . كدت أقضي عليها . دفعت ثمن حماقتي على الفور . لم يعد من حقي اللعب مع أمي .

ضاع وقت الحكايات يا أمي . تبدل الزمان ومضى وقت اللعب معك إلى غير رجعة . لا حكايات ، ولا حديث عن الوصية والحقوق الضائعة أيضا .

من كان يصدق أن أمي دنيا زاد تتوقف عن الكلام ، وهي راوية نوادر وحافظة حكايات . كبرت عدة أعوام وأحسست بشيخوخة مبكرة بسبب ما جرى لأمي اليوم على يدي .

أخرجت العرض وقرأته للمرة الخامسة أو السادسة . عرض مناسب . لن نجد أفضل منه . عرض لقطة ، ولكن .. بلعت الكلام في جوفي من شدة الغضب . تضايقت . أحسست بوجع في فكي .

سألت نفوسة عن صورتي المعلقة ، قالت اللعينة ، كما أنت يا دكتور . سألتها : هل فكي معوج إلى هذا الحد الذي تظهره الصورة ؟ نقلت البنت عينيها بيني وبين صورتي ، تأملت فكي وصورته بإمعان ، قالت : مثل القمر يا دكتور .

كانت نفوسة تضحك وتخفي ضحكتها ، ابتسمت غصباً عني ، قالت : اضحك اضحك يا دكتور ، دنيا فانية ، قالتها وهي تضحك ، فأجبرتني على الضحك .

* * *

الفصل الثامن

عابد عبد المتجلي زوغلي

أخلفت اليزابيث موعدها ولم تحضر .

وتبقت لك يا عابد النجوم البعيدة لترقبها في حسرة على مهل . قمر ١٤ خنقه أولاد الجان قبل موعده . غاب ولم يصرخ الأطفال مطالبين بتركه حتى يكتمل . يومك يا عابد أصبح ثقيل الوطأة ، وقد فقد شعاعه الفضي القادم من البعيد على البعيد كما يقول شاعر حديث . هي أشعة من وهم ولكنها في ثنايا القلب متاريس وركائز . وإذا خلا القلب من المتاريس أصبح قلبا بلا صمامات . قلبا دون أورطه أو شرايين .

نفوسة اليوم ليست علي ما يرام . هل تلفت متاريس قلبها هي الأخرى ؟ أم ضاع قمرها ؟ ربما تحلم بقمر جديد ؟ شبابها يمنحها القدرة على التمني ، والوقت يسمح لها بمعايشة الأحلام . لا تضغط عليها يا عابد . حياتها ممتدة أمامها وتتسع لشموس وأقمار عديدة . وسكة أبو زيد كلها مسالك . مشت البنت اليوم علي سكة أبو زيد فتاهت ، خطفتها النداهة . الأحلام الصغيرة في حاجة إلى روافد معتمة لتمرح ، وها هي نفوسة سارحة ، تائهة في روافد العتمة ، تجر رجليها . تبدلت سحنتها وفارقتها يقظتها . تركتها في المكتبة فأصابهامكروه وانقلب حالها . ماذا صادفها في يومها وبماذا حلمت ؟ أحلاما كبيرة أم صغيرة ؟ اليوم الثلاثاء وليس لدينا وقت للأحلام . تسألني عن

وجهتي . تغاضيت عن السؤال ، اليوم موعدي مع علماء أفاضل ، تعرفهم وتشرف على إعداد العشاء لهم منذ عشرين عاما ، وتسألني عن وجهتي . هذه هي بلادة النساء . سألتها في حزم عن العشاء ؟ زاغت عيناها، حادثتني وهي غائبة ، قالت : نعم . نعم . العشاء في موعده .

عاجزة عن الكلام أو تكتم شيئا عني . سألتها عن ضيوف المكتبة هذا الصباح ، قدمت لي دفتر الزوار ووقفت صامتة . لا ثرثرة ولا تعليق ، وهي التي لا تترك زائرا قبل أن تخبر مظهره ومراده ، تعاكسه بالنظرات والإشارات حتي تفك عقدة لسانه . لكنها هذه المرة ساكتة ، هل ضايقها واحد من الزوار؟ قدوم الدكتور سامح ينكد عليها ، كلامه يسم بدنها وصمته يقتلها ، وتصفه بأنه مثل عفاريت المنام ، يأتي علي السيرة . علي رأس قائمة الزوار علاء العتر ، قدم في الساعة التاسعة صباحا بعد خروجي بقليل ، ابتسمت . قالت : أعاد صورة خاله المرحوم سعيد علي بهجت ، وتفرج علي التحف وذهب . قالت : وعد بالحضور مرة أخري . صدقت ظنوننا . قالت لي يومها : هذا الغريب فيه شبه من المرحوم سعيد ، وبعدها صرخت باكية حبيبي يا علاء .

هذا هو علاء العتر . الطفل الصغير الذي كبر . النبتة التي رعاها سعيد علي بهجت ومات قبل أن يشتد عودها . مسكين . تعلق قلبه بهذا الطفل ، ومات قبل أن يراه صبيا .

في زحمة الحياة ، وبمضي الأيام ، نسيت هذا الطفل وضاعت أخباره عني . كيف يا عابد ؟ هذا ما وقع وما جرى ولا حول ولا قوة إلا بالله . جاء ولم نعرفه من هيئته أو كلامه . جحود ؟ قلة أصل منا ؟ كل شيء جائز . سألتها عن مهنته وماذا يفعل في دنياه ؟ قالت : لا أعرف . كتب اسمه وتاريخ الزيارة فقط .

حقيقة طاحونة الحياة جبارة ، تأكل ، من منا كان يظن ؟ كلنا ننسى . كان الطفل نواره المكتبة عندما يحضر مع خاله . الخالص . أكرمه يا عابد . افتح له قلبك قبل دواليب المكتبة . هذا رجل فيه من رائحة أحبة وأصحاب فضل رحلوا ، ورحمة الله عليهم جميعا .

سألت نفوسة عما جرى اليوم أيضا ؟ قالت : جاء الدكتور سامح وقال إن دنيا زاد متعبة . هذه أعرفها.نفوسة لا تفصح عما يشغلها ، تركتها وشأنها . سألتني فجأة وهي نصف نائمة عن قمر ١٤، قلت : خنقه أولاد الجان . قالت : رحل قبل موعده ، خسارة .

سامحتها من قلبي لنسيانها مأدبة كل ثلاثاء . كانت رقيقة وهي تحدثني عن اليزابيث . وقد رأتها مرة واحدة في غيابي .

اليزابيث لم تغادر مصر ، إحساسي يقول إنها في القاهرة ، وكما رأيتها صدفة ساعة صفو ، الحق بها ساعة بشر . بحثت عنها اليوم في الطرقات ولم أظفر بها . أعرف عنوانها لكنني لا أقدر على التطفل عليها ، هذا الجرسون يعرف طريقها . غدا في جولتي الصباحية اسأل البواب عنها ، أمنحه جنيها ، كلا خمسة جنيهات ، يفتح لي باب المصعد ويصحبني إليها . هل اسأل جرسون فندق شبرد عنها ؟ هذا الجرسون من معارفها ويعرف أخبارها وتحركاتها . هذا إحساسي . أراهما يتداولان ويتبادلان النظرات . الجرسونات ملاعين ، إذا سألته عنها يفضحني .

لنا جلسة الليلة هي مسك الختام . اكتملت أجزاء موسوعتنا . نقبت عن بذرة التنوير في تراثنا ، هذه البذرة التي أصابها السقم في بلادنا في نهاية القرن العشرين بسبب الميل إلى الخرافات والنزعات السلطوية . المبحث الثاني أعده صديق عمري بوشناق الطهطاوي حول مسالك التنوير في عصر العولمة ، أما

صديقنا العلامة الدكتور أحمد أبو الشرف فكانت مهمته استشراف منظومة القيم في ظل مكتشفات وإنجازات تشبه أعمال السحر الأسود في الأساطير .

ستة أجزاء جاهزة للطبع .

في هذه الأوراق جهد سنين . هل الواقع أكثر بشاعة مما نظـن ؟ أم هـي مبالغات مثقفين ومخاوف لا محل لها . قلت : خطى كتبت علينـا ، فأجـابتني نفوسة مكملة من بعيد ، ومن كتبت عليه خطى مشاها . عـادت البنـت إلـى صوابها . فارقتها حمي الذهول . فاقت . صوتها كرجع الصدى فيه شـجن . هذه البنت ورثت عن أمها ملكات عجيبة غريبة . لا أحد يعرف قدرات هـذه البنت قدر العلامة بوشناق الطهطاوي . يشرح لها أبيـات الشـعر ، فتفهمـها وترددها علي طلبة كلية الآداب . ذهنها وقاد وأهم من الفطنة والذكاء روحـها فيها شفافية ندرت ، إذا سرحت رأت ما لا تراه عين . وسمعت ما لا تسمع به أذن .

كان أبي رحمه الله يحسن معاملتها ، ويقول ، هذه عرافة عائلـة زوغلـي باشا . سألتها ماذا رأت اليوم في يقظتها ؟ قالت : غرقت مركبنا وسحبها طفـل صغير . قلت : الحمد لله يا نفوسة .

نبوءة أغرب من الخيال ؟ مركب تغرق ويسحبها طفـل . جـزاك الله يـا نفوسة خيرا ، أطلع بوشناق الليلة علي هذه الرؤية . المـهم الآن : العشـاء . العشاء يا نفوسة في موعده .

* * *

الفصل التاسع

اليزابيث

سألت وأنا مغمضة العينين : خير يا أستاذ عابد ؟

سمعت جرس الباب وأنا نائمة . كانت زميلتي متغيبة عند عائلة خطيبها . قمت فزعة . من القادم هذه الساعة ، كنت أظن أننا بالليل . صدمتني شمس النهار . أغلقت عيني المتعبتين . فتحت الباب في حذر وأنا أقاوم النوم ، بينما خوفي يدفعني لغلق عيني وكأن كارثة تنتظرني علي الباب . استرحت لرؤية البواب ، بعد برهة تبينت الأستاذ عابد ، بين الحلم واليقظة دعوته إلى الدخول ، قلت : تفضل .

أغلقت عيني قبل أن أغلق الباب .

ماذا جرى في الدنيا ؟ هل أصيبت زميلتي بمكروه ؟ اقتحم قلعتي وسمحت له بالدخول ، سألت : خير يا أستاذ عابد ؟ سرح بعيدا وتجاهلني تماما . التقينا مرات في فندق شبرد ، كان يتوقف عن الحديث ويغيب ، ثم يعود ليروي شيئا ، تغاضيت عن سرحانه ، كنت بقميص النوم الخفيف ، انشغلت بوضع البالطو علي . أراه يطل على العمارة المقابلة . نسيت غلق النوافذ أمس ، زميلتي تجزم بأن ضجة القاهرة تعلق بالجدران والدواليب مثل الأتربة .

تركته . مشغول وغائب عني . ربما تعقدت مشكلته في المكتبة مع الورثة . سألت : قهوة أم شاي ؟ ضحك ، قال : ماذا تشرب أميرة في

الصباح ؟ ضحكت ؟ شعري منكوش كغولة . سحنتي متربة من العاصفة الرملية أمس . خادمة متعبة من كثرة العمل ، ولست أميرة ، ضحكت مرة أخرى .

ضايقتني ذرات الرمال في الساعات القليلة التي نمت فيها ، دبابيس تشكني كلما تحركت . وأزعجتني ضجة الشارع ، لكنني من شدة التعب لم أقم لإغلاق النوافذ . عانيت في ليلتي من حبات الرمل ومن الضجة . وهذا الرجل العجوز يوقظني دون سبب ... ما العمل ؟ أطرده وأعود إلى فراشي . أنا متعبة .

قال : آسف لحضوري دون موعد ، ولكن ..

وقفت وسط الصالة أرقبه وانتظر أن يفصح ويخبرني بما جرى في الخارج ، لكنه سكت . عاد إلى النظر إلى العمارة المقابلة . جاء هذا الرجل في هذه الساعة ليقف في نافذة مسكني . ليتفرج على زحام الطريق ويمتع أذنيه بضجة شارع القصر العيني التي لا مثيل لها . وقفت . لا يترك النافذة ولا يتكلم . لا يشغل نفسه بي ، أنا التي أيقظها من نومها دون هوادة أو رحمة . لديه فسحة من الوقت وجاء ليتفرج على زحام الطريق .

ناديته . لا يسمعني ولا يود سماعي .

رأسه مائل قليلا إلى اليمين . كتفاه ساكنتان ولا يحرك ذراعيه . تركته على راحته . يقف في الشرفة وإذا تعب يجلس في الصالون يتفرج على التلفزيون . ذهبت لأستعد ليومي .

مطمئنة إلى شروده دخلت الحمام ، لن يفتقدني أو يناديني . قبل أن أخلع ملابسي حاولت قفل الباب بالمفتاح فاحدث ضجة ، وعاكسني المفتاح ، بللته بريقي ودفعته بقوة في خرم الباب . أغلقت الباب وأصدر صريرا قبيحا . كان من الأفضل ترك الباب مواربا . هذا الصوت المعدني الخشن ربما يوقظه من شروده .

ألقيت نظرة على المرآة .

قاربت إجازتي على الانتهاء ولم تسمر بشرتي ، كأنني لــم أحضــر إلــى القاهرة المشمسة في الخريف ، وجهي أصبح أكثر شحوبا عن قبل . ابتسمت . أنا لا أري شمس القاهرة بسبب لقاءاتي في المقــاهي والفنــادق والمكتبــات . دعكت وجنتي حتى تشربتا باللون الحمر . مريضة بأنيميا مزمنة أو بلهارسيا ؟ البياض الشاحب يروق قلة من الكتاب والفنانين صغــار الســن ، أمــا الذيــن يكبرونني في العمر فيعاملونني كصبية صغــيرة أو امــرأة ناقصــة ، وهــذا يريحني ، أو هكذا كنت أعتقد في السابق .

فتحت الدش .

ضربتني المياه الباردة ، تركت نفسي . أبحث عما ينعشني لمواجهة أعباء يومي . ثلاثة مواعيد تنتظرني ، اثنان في مقهى رخيص علــى موائــد علــى الرصيف مع شبان ، وموعد مع كاتب من المؤسسة في فندق فاخر يضــايقني الذهاب إليه بمفردي . أحب الوقوف تحت الدش في الصباح في تكاسل . وهذه الزيارة المفاجئة تضايقني . أمزجة الرجال متقلبــــة ، لا فــرق بيــن شــيوخ وشباب ، عدوانيتهم تحت الجلد ، وهذا العجوز اقتحم عريني .

ربما يوافق علي صحبتي إلي الفندق . أتخلص منه هناك .

انتهيت من حمامي . استرحت . أنعشتني المياه الباردة . لففت شعري إلــى فوق ، وغطيت رأسي بفوطة . وارتديت ملابس داخلية ثقيلة . برد الخريــــف في القاهرة يتسلل مع أشعة الشمس كالدبابيس ويستقر في عظــامي الهشــة .. عانيت من هذا البرد في كل زياراتي السابقة إلى القــاهرة ، وتعلمــت طــرق التغلب عليه .

ذات مرة لفتني زوجة البواب في ورق جرائد ودعكتني بزيوت كريهة ، تحملتها في قرف شديد . كانت المنطقة غارقة في مياه المجاري وتفوح منها رائحة تفوق رائحة الزيوت ، فتحملتها ، بقيت ملفوفة بورق الجرائد ثلاثة أيام حتى شفيت . كنت مرهقة وبائسة . توقفت عن الذهاب إلى الجامعة وبقيت ملفوفة في ورق جرائد في البيت ، مرمية ، كلفة رخيصة من محل بقالة . بعدها انتقلت إلى شقة مفروشة في الزمالك .

وقتها كنت طالبة فقيرة ، وغيرت مسكني الرخيص في الجيزة هربا من الروائح الكريهة ، وأقبلت على استخدام العطور الغالية في بذخ . أكره برد القاهرة لهذا السبب . الزيوت التي عالجتني بها زوجة البواب كانت فظيعة .

أكثر من استهلاك العطور ، مهما كانت ظروفي المالية صعبة . هذه متعتي . صديقتي تضايقها طريقة تعطري ، وتزعم أن عطوري القوية تفسد طعم الشاي في فمها ، اليوم هي غائبة . ذهبت مع صديقها إلى الغردقة لمدة يومين . شاب لطيف هذا الجرسون . عرفني على الدكتور سامح ابن أخت الأستاذ عابد في النادي . تعطرت على مهل . الأستاذ عابد لن تضايقه عطوري . ربما يفتح فمه ويحدثني عما يشغله هذا الصباح . الرجال يحبون العطور أكثر من النساء .

غطى عطري على رائحة بخار الحمام . فرحت . طفلة تلعب . تسعدني متعي الصغيرة . وهذه ساعة لهو قبل سماع من يكبرونني سنا ، أولئك الذين لهم خبرة ، ويزعمون أنهم يدركون أبعاد المسائل ويمطرونني بنصائحهم .

نذهب لتناول الإفطار في الخارج . انتظرني طويلا ، ولا أود حبسه هنا . من الصالة ، رأيته واقفا كما تركته . أذهب لشأني وأعود إليه .

هذا الرجل جاء ليتفرج على شيء في العمارة المقابلة .

قبقاب الحمام من مستلزمات الشقق المفروشة في مصر . لا فـــرق بيـــن القاهرة أو الجيزة أو الإسكندرية . عرف . ويأتي القبقاب فـــي خاتمـــة قائمـــة الجرد بعد البوتاجاز والثلاجة والسخان ومرآة الحمام التي عـــادة مـــا تكـــون مشروخة . يمنح السماسرة قبقاب الحمام أهمية . وكلهم كذابون . يقول الواحـد منهم منتفخا : قبقاب الحمام . وكأنه تحفة . بينما يكون القبقاب قديما ويجـــرح الأصابع . في كل الشقق المفروشة التي تنقلت بينها في مصر ، كنت اسأل عن قبقاب الحمام قبل توقيع العقد . هذا قبقاب جديد فعلا . في الصباح أخطر به .

أدق الأرض في إيقاع سريع . فتضحك زميلتـــي . دققـــت الأرض كفتـــاة أسبانية تنقصها فقط صاجات في يدها . لم يلتفت . لـــم يســـمع . اقـــتربت . الفوطة تلف رأسي كرواد الفضاء ، ووقفت أمامه كشجرة تحجب الغابة ، فأنـــا نحيفة ورفيعة ، قلت : آسفة . تأخرت ؟ زاد ســـكونه علـــى ســـكون . زدت اقترابا ، نظرت في عينيه ، سألت : ماذا جرى في العالم ؟ صمتـــــه رائـــق . عطري يحيطني بدلال ، وأحس دلالي ، سحري ، سحبته إلى عمق الصـــالون بعيدا عن النوافذ ، وضعت يدي علي كتفه وانحنيت ، قلت : شاي أم قـــهوة . وفي لحظة مجنونة قبلته في فمه وتركت شفتي . نسيت موضع شفتي ، هـــل أقبله أم أنكد عليه ؟ طفلة رمت بأوراقـــها الرابحـــة بســـبب عـــدم فطنتـــها . وخسرت .

سكونه دفعني إلى عناد . لا أعرف . لا يقبلني وأطمع في واحدة . ســـاكن في جلسته . لساني يلمس وجنته وشفتيه . ولا يحس بي . يتنفس بجانب فمـــه . جلست على ركبته فأخذني في حضنه في رقة حتى لا أقع . كف راحته يلامس ظهري ، وصدره خامد . حائط صلب يمتص مشاعري . تـــذوب مداعبـــاتي الصبيانية في بحار صمته ، كان بعيدا . عملت على تأكيد براءتي ، خبطـــت على رأسه وقلت : ماذا يدور هنا ؟

أخيرا فتحت نفسه للكلام ، قال :

ـ في هذا الشارع ضاعت روحي . أمي دهستها سيارة وهي واقفة على محطة ترام في نهاية هذا الشارع من ناحية فم الخليج ، ماتت على الفور ، أبي سعى إلى معرفة سائق السيارة مهما كان الثمن ، وكنا نقطع هذا الشارع عدة مرات في اليوم ، استمعنا إلى قصص كثيرة ، وكنت أصدق ما يقال ، أما أبي مفتش التحقيقات فلا يهدأ ولا يصدق ، يتابع بحثه ويجرجرني معه .

في الساعات التالية لرحيل أمي ، في عز الصدمة ، كنت على يقين بأنها اختارت الطريقة التي تموت بها ، أرادت الموت في صحتها وعافيتها ، وجاءها الموت كما أرادت ، امرأة أتمت رسالتها وأرادت الموت ، استرحت لهذا اليقين ، ووجدت فيه عزائي . لكنني بسبب صغر سني ، طاوعتهم ، تخليت عن نبع راحتي . تلبستني رغبة الإنتقام من القاتل . أصغر أخواتي البنات ، وكن يقلن ، أمنا قتلت عن عمد . أطاوعهن ، وكن يعرفن شيئا ويخفينه عني . قاطعته مستفسرة ، وليتني ما فعلت ، قلت : وهل تم القبض على القاتل ؟

ظن أنني ألومه لتذكر حكاية قديمة ، توقف ، سألته أن يكمل ، لم يجبني . كان غاضبا . صمت فجأة كما بدأ حكايته فجأة .

بددت أوراقي بمقاطعته السخيفة التي لا معنى لها . كان من الذوق سماعه حتى يفرغ من حكايته ، لكنني قاطعته في لحظة كان يعيش فيها مأساته ، عطري ودلالي لن يفلحا في كسب رضاه ، حيدثنا انتهى ، حزن الرجل أقوى من محاولات توددي له .

كسر قلبي .

* * *

الفصل العاشر

الدكتور سامح الدهشوري

تخلصت من مارينا عن غير قصد مني في لحظات ، بلا تدبير أو تفكير . وصادف ذلك هوى في نفسي . استرحت . في الحقيقة لم أسع إلى التخلص من مارينا في هذه الساعة ، وجرى ذلك كله بمحض الصدفة . نهاية سريعة لتعارف وقع بالصدفة واستمر أكثر من عامين .

ابتسمت .

لا أحب المغامرات الطائشة ، وعلاقتي بمارينا كانت من ذلك النوع ، فتاة جسورة ، قلبها لا يعرف الخوف ، أحاسيسها ميتة ، في دماغها مشروعات لا أول ولا آخر لها ، من نوع طواحين الهواء . وتزعم أنها تحول التراب إلى ذهب أصفر .

وعندما جلست ، وقالت إنها تصرفت . تنبهت . هذه مكتبة خالي عابد عبد المتجلي زوغلي ، تراث عائلة الزغلية ، كيف تتصرف فيها ؟ لم أفهم قصدها ، لكنني تضايقت ، كنت في ساعة راحتي من العمل ، هربت من الجامعة والعيادة ، وأتيت إلى النادي للراحة . ساعة واحدة أجدد فيها نشاطي . أغمض عيني وأفرد جسدي علي مقعد مريح ، أتجاهل أنني أفكر ، لكنها قطعت خلوتي في غلظة ، ولما قالت ، أنها تصرفت ، قلقت ، سحبتني بعيدا عن منبع راحتي : السكون . كرهتها .

من السهل التخلص من أية فتاة أو أية امرأة ، ولكن من المستحيل إجبارها على الصمت أوعلى تأجيل ما يشغلها . لا الزجر ينفع ولا الشجار . ربما الضرب يلجم لسان المرأة ، لكننا في النادي ، وماريتا بنت أناس أكابر من علية القوم ، استسلمت لحديثها الثقيل . بدأت خسارتي .

لسوء حظها ، كشفت أوراقها مرة واحدة ، قالت : عبد المتجلي بك في خطر .

تأملت قولها في دهشة . خالي رجل فاضل ، لا يقترض من البنوك ، ولا يستخدم شيكات ، تشغله قضايا التراث والمعاصرة ، تجاهلت قولها . لكنها نجحت في إثارتي . سحبتني خطوة بعيدا عن نبع السكون .

قالت : خالك سوف يسجن . أحذر .

قلت هذه المرة متجاهلا سخافاتها : أطمع في ساعة راحة .

قالت في بلادة : هذه ساعة غداء .

هممت بمغادرة النادي . أهرب من حديثها . البقاء في العيادة أرحم على قلبي من سماع أقوالها . قبل قيامي وضع الجرسون أطباقا منتقاة أحبها أمامنا . تراجعت . لا يصح القيام في هذه اللحظة . رفض دعوتها أمام الجرسون عيب . رأتني من بعيد فطلبت الغداء وجاءت إلى مائدتي لتقتلني بكلامها . هذه دعوة بالإكراه . استسلمت مؤقتا .

تخليت عن راحتي وأجلت الذهاب . ماريتا شيطان كبير . صادتني بسهم واحد ، وأوقعتني في شبكتها . أسمع ولا أسألها شيئا ، أدور كلامها في رأسي وأتناول طعامي ، قررت مداواة جرحي بالصمت . التجاهل هو سبيل لجم لسانها .

في أوقات أخرى تشغلني فتنتها وأغازلها . آخذ يدها . أعلق على حسن هندامها . أداعبها . أقبلها في شفتيها. أسبح إلى جوارها قبل الغروب وآخذها في حضني بالليل . لكنني هذه المرة تجاهلتها . إذا نجحت في ترويضها مرة واحدة ، ربما ... راهنت .

تنتظرني جراحة كبيرة الليلة . جراحة مقدر لها ست ساعات . أجريت الفحوص اللازمة ، واستعنت بمجموعة من كبار الأطباء ، لم أترك شيئا للصدفة ، لكنني مهموم بها ، هاجس في داخلي ينصحني بتأجيلها . يضايقني اقتحامها لخلوتي . هذه ساعة تأمل . عملي في حاجة إلى تركيز . جسد الإنسان ليس آلة تقبل قطع الغيار . آلة تقبل مناشير طبيب العظام ، لكنه كائن عنيد له قوانينه الخاصة . هذا مريض جسده يرفض الجراحة ، لا أقول يود الموت ، لكنه ينتظر شيئا لا أعرفه ، ربما تعويذة ، ربما قراءة طالع ، وهذه أمور لا تأخذ في حسبان الأطباء ، لكنها حقيقة من حقائق الحياة الدنيا .

هذا إحساسي ، ولا أستطيع تجاهله أو غض النظر عنه . عليك اللعنة يا مارينا . لقمتها يسممها كلامها ، قالت :

ـ عبدالمتجلي بك في مقدوره نقل المكتبة إلى مكان آخر .

رأيت عيبا في فكها الأسفل عندما تأكل . أسنانها ليست جذابة كما أظن . فاتني عيب فكيها في السابق ؟ هذه الفتاة في حاجة إلى جراحة لتأكل في يسر . قلة الطعام سبب رشاقتها . لم أفحصها بعين طبيب من قبل . أفحص المرضى في عيادتي فقط ، وليس في النادي . كدت أقضي على أمي عندما مازحتها في لحظة لا تتحمل فيها المزاح . هذه ليست فطنة .

رأيت شرا في عينيها . تخلط بين تعلقي بها وإجراء صفقة من ورائي . تعمل على بيعي مكتبة عائلتي في مقابل عمولة كبيرة ، لصالح مكتب سمسرة تمتلكه . مهنة جديدة على البنات ، ولا تقاليد لديهن في إدارتها . رأسمالهن في

إغراء العينين وطلاقة اللسان وعلاقات واسعة برجال الأعمال والبنوك والصحافة .

تناولت شيئا من الطعام .

أمي يشتد مرضها ومع ازدياد آلامها تزيد جرعة المسكنات . وصيتها الوحيدة طلب العناية بخالي . هل أقضي عليها بطرد خالي من مسكنه . أمي تركت حقوقها منذ عقود ، تركتها راضية ، ولا يشغلها استعادتها في أيامها الأخيرة ، مريضة وعلى وشك الرحيل ، وكلنا نعلم بقرب ساعتها ، فكيف أكسر قلبها ؟ مضايقة خالي أكبر خسارة في حياتي . مضايقة خالي فيها القضاء على أمي . هذه لا شك فيها .

لست في حاجة إلى مارينا أو شركة بان أكس كوم العالمية أيضا . هذا قراري . طلبت من مارينا أن تقرب وجهها مني ، ظننت أنني سوف أقبلها ، مسحت فمها بفوطة ، ورأيت لمعة عينيها ، وهي تتعلق بي في عشق . مددت يدي وعصرت فكيها ، ضغطت عليهما بقوة ، رأيت الفارق بينهما ، الجراحة في صالحها ، فيما بعد سوف تعان من مضاعفات كثيرة قد تصل إلى العمود الفقري . طلبت منها الهدوء . صرخت : لست مريضة . هذا لا يليق .

جرت باكية .

أراحتني .

البنت تعرف عيب فكيها وتخاف الجراحة ، وضبطتها متلبسة . وضعت أخيرا يدي على ما يفزعها . لن تقرب مني بعد الآن منفردة . عيب فكيها العورة التي تخفيها وتسترها . عريتها دون قصد مني وكشفت عورتها . سارت . بنيتها قوية وجسدها رشيق ، مفاتنها بارزة وتكشف عنها ملابس الملاعب القصيرة ، امرأة فاتنة لكنها هشة وضعيفة . امرأة فقدت السيطرة على مشاعرها وترمح . جبانة . هذه لا تصلح زوجة ولا حتى صديقة .

قلبها فيه أنانية . طموحاتها غريبة . في المـــرات القادمـــة ألاعبـــها علـــى المكشوف . أنثي تصلح لحفلات سمر . أنثي تصلح لمغازلة الرجال في عــالم المال . إذا طلبت منها العمل في عيادتي قبلت . انتظرت أن تلتفت إلى الخلــف وهي تبتعد ، لكنها لم تفعل ، كانت خجلة من عيب فكيها .

وضعت يدي على ما يشل إرادتها ، عيب فكيها سوف يبعدها عني .

الليلة فرصتي لإجراء هذه الجراحة ، تخلصت مـــن ثقــل علـــي قلبـــي . تحررت . شحذت قواي . همي نجاح الجراحة الليلة ...

* * *

الفصل الحادي عشر

عابد عبد المتجلي زوغلي

شهادة الوفاة معلقة على الباب الخارجي . إعلان موتي في كلمتين : المكتبة مغلقة .

أنا عابد عبد المتجلي زوغلي شهدت لحظة موتي وعلقت شهادة وفاتي بنفسي . الموت لا بد له من شهادة وفاة ، وشهادة وفاتي تلخصها كلمتان : المكتبة مغلقة .

لصقت الورقة في منتصف الباب في عناية ، لم أتركها لنفوسة لتعلقها . هذه مسئوليتي . أشرفت على المكتبة خمسة وثلاثين عاما ، وها أنا أكملت مراسم الجنازة بوضع شاهد قبر من ورق . إعلان للكافة بغلق المكتبة .

اكتملت رحلة العمر . وكل نهاية تنتهي بشاهد قبر ، شاهد قبر من حجر أو ورق ، لا يهم . قال لي شيخ المحامين على التليفون مطمئنا :

ــ هذه زوبعة لا أكثر ولا أقل . نفوس ضعيفة.هي أسابيع أو ثلاثة أشهر على الأكثر ويظهر الحق .

مت يا حمار حتي يصل العليق . دارت عجلة الزمان بالمقلوب. قضيت عمري محققا لكتب التراث ، وفي نهاية العمر تلصق بي تهمة تهريب الآثار . يا للفظاعة . طاوعته . لا مفر من الصبر .

في كلمات منمقة رقيقة ، طلب مني مغادرة القاهرة والبقاء في العزبة عدة أيام ، قال : حتى تهدأ الأمور ، رفضت دعوته . أغادر بيتي إلى القبر . هل أهرب ؟ لا يصح . من في عمري لا يهرب . قال : معك حق .

داخل بيتي . أقف . أجلس . أسير . أنام . أتأمل . لكنني لا أقرأ ولا أدون شيئا . أنظر من الشرفة وأعود إلى غرفتي . تركت مراجعي ومخطوطاتي وأبحاثي . لا أمد يدي إلى ورقة . أضع طاقية وأسير وفوطة الحمام في يدي . أتزين على راحتي . استمع إلى المندولين . امتلكت حريتي بعد موتي . ثماني غرف واسعة أمرح فيها على راحتي .

في الزمن الغابر ، لما كنت مشغولا بالمكتبة وضيوفها ، كان من أوائل مستلزمات عملي ارتداء ملابسي واستكمال زينتي في الساعة السابعة والنصف صباحا . لاستقبل ضيوفي بنفسي . نظام صارم قيدت به نفسي . وأخيرا .. لا فائدة من الشكوى .

وبقينا كالمساجين بين الجدران يا عابد بعد غلق المكتبة وغياب الضيوف . نفوسة كسرت نفسها وشاخت . غرقت مركبنا ، ولم يسحبها طفل ولا عجوز . الشغالة توقفت عن الخدمة . الطباخ يئس من رحمة الله ، وعلى لسانه : الظلم يا باشا عشش في البلد .

هذه ليست غمة . هذه ...

ويبقى وداع اليزابيث . أعيد لها بقية أوراقها دون مراجعه . القصد . أقول لها المكتبة أغلقت في ليل لا قمر له . رعيت مراجعها وأوراقها طوال عمري ، وفي نهاية العمر أغلقتها . أغلقتها بورقة وليس بالشمع الأحمر . وهذه من نعمة الله علينا ، بدلا من الفضائح . ورقة وليس بالشمع الأحمر . بسيطة يا عابد . طردت من الحكومة ولم تهتز ، قلت : هذا ظلم .. لكن غلق

المكتبة فيه مهانة . وتهريب الآثار يا لها من تهمة . تهمة فظيعة لا أتحملها . وما يكسر القلب قول نفوسة أن الدكتور سامح وراء ما جرى لنا . كلا يا نفوسة . ربما يعرف ويسكت ، لكنه لا يقدر على اتهامنا بما ليس من طباعنا .

سامح بعيد عما يجري أو ليس بعيدا . لا يهم . القرار جاءني من فوق . وما جرى جرى ولا حول ولا قوة إلا بالله .

دنيا زاد عملت قبلي في المكتبة ، وساعدت أبي في إعادة تصنيف مراجعها وتحقيق بعض المخطوطات العثمانية . أذهب إليها وأقول لها أنزل الستار على مكتبة زوغلى باشا . انتهت المسرحية التي استمرت ثلاثمائة عام ، وكان قرار الغلق من نصيبي يا دنيا زاد . كلا . أصبر يا عابد . هذه غمة . دنيا زاد تقضي إذا لحقها الخبر . أصبر .

الدكتور أحمد أبو الشرف حادثني أمس . قال : هذه معركته . وقد كتب للمسئولين . وطلب مني الصبر والهدوء . قلت : حاضر . أسير في مسكني . أتنقل من غرفة إلى غرفة . لا أقرأ ولا أكتب . أليس ذلك هو الصبر بعينه . تركت القضية في يد محام واحد ، وطلبت منه عدم إزعاج السلطات في دفاعه . فهذه مسألة إدارية وليست سياسية . خطأ غير مقصود . ماذا أفعل ؟

مهنتي المحاماة ، لكنني تركت أوراق التحقيقات لزميل فاضل ، شيخ المحامين أنورعلي، وطلبت حضور صديقي بوشناق الطهطاوي لمتابعة الأوراق . ترك الرجل مصالحه في العزبة وقدم للبقاء معنا في القاهرة . رجل له جلد ومعرفة بسراديب المكاتب الحكومية . في القاهرة المحروسة دواوين الحكومة أهرامات قوامها سراديب وأبواب سرية . سراديب لا تعرف الشفافية ، بل أحكام قراقوش . جاءني الرجل على عجل . قال ضاحكا :

ــ يا سيدي القرن الجديد له زفة . وهذه واحدة من العلامات .

يضحك . معه حق . صفحات القرن العشرين طويت بأسرع مما توقعنا . والبداية لا تبشر بخير . قلت : خطى كتبت علينا ، قلتها في سري ، فلم أسمع رجع الصدى الرخيم .

قالت نفوسة فجأة ، الخالق الناطق عبد المتجلي بك . أسعدني قولها . أسير بين دواليب المكتبة أتقمص شخصيته . روحه تصحبني وتعزيني . طرد من الحكومة بسبب وشاية عام ١٩٥٤ ، وقال : لن أركن إلي الشكوى أو الكسل . مهمتنا تربية أجيال جديدة . غابت صفحات ثورة ١٩١٩ بغياب النحاس باشا . وأوصاني ، قال :

ــ إذا صادفك الظلم كما صادفني . تفرغ للمكتبة يا عابد .

عملت بوصيته بعد طردي من القضاء والحكومة عام ١٩٦٦ . رفضت العمل بالمحاماة . وتفرغت للمكتبة وتحقيق الكتب . فاتني قطار الزواج . كرست حياتي لدنيا زاد وابنها . عملت بوصيتك يا أبي . تفرغت للمكتبة لكن المصائب لحقت بي في نهاية العمر . تهريب الآثار خيانة للتاريخ . شهود أجانب . تسجيلات . العياذ بالله . .

مات الدهشوري بك وفي قلبه غصة . ذبحة صدرية أو جلطة نسيت ، كما أنني لا أعرف الفرق بينهما ، سويعات قليلة اختنق الرجل ، قالت دنيا زاد وقد رأته مخنوقا يتلوى وازرقت سحنته ــ والعياذ بالله ــ سامحه الله وغفر له . هل أقضي بذبحة أم بجلطة ؟ أموت كما مات الدهشوري بك أم أموت كما مات أبي في فراشه راضيا بعد وعكة قصيرة . أم انتظر الموت كأمي على محطة ترام ؟ أغلب ظني أنني سوف أنتظر الموت في المكتبة . يحصدني ملاك الموت قبل ظهور براءتي .

من العدل والرحمة معرفة الطريقة التي يموت بها الواحد منا . إذا جاء سامح سألته عن حالتي ، ربما .. ماذا ينتظرني بعد غلق المكتبة ؟ الرحيل يا عابد . الموت .

زعم أبي قبل وفاته بدقائق أنه تعرف إلي سائق السيارة التي دهست أمي ، ولم يكن قاتلا ، وأضاف في كلمات متقطعة شيئا حول القصد العمد ، والفرق بينه وبين الخطأ غير المقصود . حديثه كالهذيان . ينطق في صعوبة بالغة عدة كلمات ويتوقف . سمعت حيثياته في تلك اللحظة الحزينة وتألمت لعمق عذاباته ربما أكثر من فراقه . كم تعذب أبي بسبب هذه المكتبة بعد مصرع أمي ؟ صمت الدهشوري بك خمسة عشر عاما وبعدها بدأت ملاحقتنا ، " من فر بميراث وارث قطع الله ميراثه من الجنة " . ويكمل : " لا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له " . المكتبة من نصيب دنيا زاد .

الخالص ، أود معرفة من تسبب في غلق المكتبة قبل الرحيل ؟ أعرفه وأموت مستريح البال .

وصيتي يا بوشناق : تطلعني على الفاعل في حياتي أو ساعة رحيلي . قل الحقيقة وأنا ألفظ أنفاسي . لا تشفق على ولا ترق ، قل الحقيقة مهما كانت مخزية أو صعبة . لا كذب مع الموت .

يسمعني بوشناق ويبتسم . لا يعلق ولا يضحك . مزارع علمته الأرض الصبر على سوءات الإدارة . فقيه ورجل أدب . يجلس في أحلى حلة ، وكأنه في ليلة زفافه . خسارة يا بوشناق . فاتك قطار الزواج بسبب الأرض وعناد دنيا زاد . قال :

ـ مسألة بسيطة . جولة في الأندية وسهرة مع الحكام في كازينو ، ويأتيك بالأنباء من لم يزود .

في لهجته الصعيدية المحببة ، سألني بوشناق في رفق :

ــ ولدنا الدكتور سامح يعرف شيئا ؟

قلت خجلا :

ــ البير وغطاه في يده .

رمقني في نظرة حانية ، قال :

ــ القصد . زيارة إلى النادي في الظهيرة ، ونعرف ..

النادي ؟ سألت :

ــ تعرف طقوس يومه يا بوشناق ؟

قال :

ــ هذا ولدنا . أمه رفضت الزواج منا بعد ترملها فزدنا بها عشقا ، القصد ..

تركت حكايته مع دنيا زاد . مضى زمانها وطوتها السنين . سألته عن مندوب شركة بان أكس كوم العالمية العابرة للقارات ، قال :

ــ هذه بسيطة . رجال الأعمال لهم تجمعات . ولي معارف في غرفة التجارة المصرية الأمريكية ، والدكتور المسئول عن تسجيل الشركات من بلدنا . هة .

أوصيته ، قلت :

ــ لا بيع ولا شراء ولا تنازل ولا تفاهم يا بوشناق .

في لهجة صعيدية خالصة ، وكلمات صادرة عن القلب ، قال :

ــ مفهوم يا عبد المتجلي بك . لكم الأمر ، وعلينا الطاعة .

حادثني وكأنه يحادث أبي . أسعدني قوله . نعم . لا تفاهم ولا تفريط يا أبي . هذه ليست مسألة مكتبة أو أو .. لكنها مسألة تمس شرف العائلة . تمس مصداقية كتاباتي . كيف ؟ توقفت عن جولتي الصباحية والمسائية . أتسلل ليلا كالجرذان . انتقل بالسيارة وقد أسدلت ستائر كثيفة . مهرب .

قال :

ــ زراعة مائة وخمسين فدانا تتطلب اتصالات بثلاث وعشرين دائرة حكومية . عشرون مفتشا يزورون مصنع تجفيف الفاكهة في الشهر . ناظر العزبة نفد صبره ، ومهندس المصنع يود الهجرة .

قلت له ضاحكا . سياسة الميكرو يا بوشناق . الحل في الميكرو .

سألني بوشناق :

ــ أين شبكة الإنترنت . المكتبة مغلقة وهذه فرصة .

رجل رائق البال . لا يعرف قدر غيظي وحزني . كلا ، يشاركني الهم ، لكنه يخفف عني بطريقته المرحة . قلت :

ــ ثلاثة أسلمتهم أمري . الدكتور أنورعلى شيخ المحامين . بوشناق الطهطاوي . عزيزة حفيدة أختي قرة زاد . مهمتهم الحفاظ على المكتبة وتطويرها بعد رحيلي ، إلى السجن أو القبر .

ضحك . قال :

ــ نحن لهم بالمرصاد . أعمارنا أطول من أعمارهم ، ولا يبقى علي المداود إلا خير البشر .

كلمات ينقصها الخيال . أوهام عجزة . بيت الشعر أصدق من قوله ، فلا يبقي على المداود غير أشر البقر . هذا زمانهم يا بوشناق . لا تكابر . الخراب له نسق . أين كتاب التفكيكية من هذا الخراب؟

نسيت نفوسة حكاية الطفل التي سحب مركبنا . تتشاجر مع الطباخ حول توزيع أنصبة البنات والأحفاد من الطيور القادمة من العزبة . تطلب من الطباخ تزويدها بأبو قردان لترسله إلى شقة الدكتور سامح بدلا من الحمام ، وتزعم أن

شفاءه من النذالة والبخل في أكل أبو قردان . تؤكد قولها بالصراخ والزعيق ، وتقسم برحمة أمها أنها وصفة مؤكدة . سألت بوشناق عن رأيه ، ضحك . قال : معها حق .

* * *

الفصل الثاني عشر
الدكتور سامح الدهشوري

في البداية ، لم أر الباب ورأيت الورقة . ظننت أنني أخطأت الطابق ، لكن الورقة كانت من الوضوح إلى حد أنها خرقت عيني : المكتبة مغلقة . نفوسة إذا لصقت ورقة مزقتها . هذا خط نفوسة . اليافطة كتبتها نفوسة وعلقها خالي . دققت الجرس مرة ثانية . لا مجيب . الحكاية جد .

دققت جرس الباب الآخر الذي يؤدي إلى الجناح الآخر من الشقة . فتح خالي الباب نصف فتحة . حائر بين طردي والترحيب بي ، قال :

ـ المكتبة مغلقة .

يقف بالروب وعلى رأسه طربوش . ابتسمت . لماذا العودة إلى الوراء يا خالي ؟ هل يلاعب طفلا كما كان يلاعبني بالطربوش في صغري ؟ ربما عنده ضيوف أجانب . يده تسد الباب . عيناه ثابتتان . ساكنتان وفيهما سكون موت محقق . فزعت ، قلت في ود :

ـ أدخل يا خالي .

سحب يده وتراجع مفسحا الطريق . حقيبة الكشف في يدي . أنت طبيب يا سامح . افتح عينيك وأذنيك . استمع ولا تناقش . المكتبة مغلقة وخالي حزين . مارينا تصرفت . أغلقت المكتبة . لم الق بالا لقولها في النادي . قالت : خالك في خطر . سوف يسجن . أغلقت مارينا المكتبة بنفوذ والدها ، فهل يسجن

خالي أيضا ؟ ماذا يدور في البلد ؟ كيف حصلت مارينا على هذا النفوذ هي ووالدها ؟ مكتبة زوغلي باشا مفتوحة منذ ستمائة عام ، تغيرت مواقعها مع تطور عمران القاهرة من حي إلى حي ، حتى استقرت في عهد جدي عبد المتجلي بك في هذه العمارة على النيل . وتأتي هذه البنت في آخر الزمان وتغلقها يا سامح .

فعلتها البنت من ورائي وهي التي تتظاهر بحبي .

مارينا لبؤة شرسة . قفزت فوق رأسي وهاجمت . فكها فيه شيء من سمات القردة . مؤخرتها الملفوفة ينقصها ذيل لتتعلق على الشجر . قردة ممسوخة تعمل لحساب أسود في غابة ، سألت قلقا :

ـ ماذا جرى ؟ أنت بخير يا خالي ؟ لماذا المكتبة مغلقة ؟

صمت خالي . وجهه ساكن . تقاطعيه لا حياة فيها . عيناه ثابتتان . فمه مغلق . سحب يده ، لكنه لم يفسح طريقا لي، يمنعني من الدخول أو على الأقل لا يرحب بزيارتي . صمته كصمت أمي . قطعت الردهة ، ووقف بعيدا عني . لا يتكلم ولا يلتفت إلى . يتجاهلني . معه حق . لم أقف إلى جواره . صمت خالي وبدأت نفوسة العويل والسباب . كلامها جارح . خرجت عن الطوع وفلت لسانها . سباب جارح . لبؤة أخرى ذيلها قصير . كلامها صراخ عويل . تجاهلتها واقتربت من خالي. تشغلني صحته . سألته عن تحليل السكر . قال : تمام . لم أكن متأكدا . لم يذهب إلى المعمل كما وعدني . طلبت قياس ضغطه ، رفض . في نظرته المنكسرة عتاب شديد ويأس .

قال :

ـ مناشير . سكاكين . سندات . أسهم . سمسرة . عمولات . الطب شيء آخر يا ولدي .

أغلقت حقيبتي .

خالي ليس في حاجة إلى طبيب في هذه الساعة ، بل في حاجة إلى محامين . حالته صعبة وعناده أقوى من كل تضرعاتي ، قلت :

ـ سوف أقف معك يا خالي إلى النهاية .

ظل خالي صامتا .

بلعت الإهانة ، هذا ليس وقت حساب ، معه حق . نعم . تكاسلت . صارحتني مارينا بنيتها في جرجرة خالي إلى أقسام الشرطة والنيابات ، وكنت مشغولا بقطع علاقتها بي أكثر من الدفاع عن خالي . فرحت لأنني أغضبتها وتخلصت منها . وها هي طعنتني في خالي . انتقمت . هذه طعنة موجه إلي . هل أخبره بأن مارينا أبو المحاسن وراء غلق المكتبة ؟ وما الفائدة ؟ صبرت ، تهمني هذه الساعة صحته ، ووقفت عاجزا .

المكتبة يخيم عليها الحزن والعتمة . لا كتب على الموائد . وظلال طويلة كالأشباح تمتد من الجدران حتي الأرض . خالي واقف وكأنه ينتظر ذهابي ، ونفوسة لا تكف عن العويل . بقائي يغضب خالي ، هل أذهب ؟ لا كلام بيننا . يظن أنني وراء غلق المكتبة ، كلا يا خالي ، أقسم لك . قلت :

ـ أنا برئ يا خالي .

فقدت أبي في صغري ، وتربيت في هذا البيت ، قالت نفوسة في وقاحة :

ـ ابعد عنا يا وش الخراب ..

* * *

الفصل الثالث عشر
مارينا أبو المحاسن المصري

عراني طبيب العظام بيد واحدة وهرب .

قلبه مع خاله العجوز المخرف وليس في يد مارينا . يتهرب مني ولا يأتي . خسرته . ضاع سامح. كنت أظنه خاتما في يدي، فأصبح وجهي دمية بين أصابعه. قطعة طين يود تشكيلها من جديد. لا تليفون في العيادة يرد ولا ممرضة تصلني به . قاطع النادي، وإذا تصادف وحضر كان في صحبة بنات خواجات ، ويتجاهلني . غير مواعيده .

لا يعرف هذا الولد ما يدور في رأسي .

حذرتني أمي دوما من النداهة ، كانت تقول : مصر جنية لعوب تبلع النساء قبل الرجال . مصر لها رأس حمامة وجسد غولة . وسحبني سامح في بحوره ، غرقت ، النداهة في مصر وحش ، بحر . من تنزلق قدمه في مصر يضيع .

كل هذا وديفيد يفترسني بصمته، وبخله في الكلام .

عائلة زوغلى باشا لا تعرف التسامح ، وجنونها يعود إلى قرون مضت . جنون يصيب الأصول والفروع . نوادر العائلة معروفة في الأوساط السياسية والحزبية والقضائية منذ عهد الملكية قبل الثورة .

الكتب الصفراء أهم من مارينا ومن المستشفي الحديث ومن الدنيا كلـــها . مارينا ورقة خضراء . دولار . جنيه . لا يهم . ورقة فارغة خالية من وهـــج الكتابة . هاتان العينان الواسعتان فرغتا من السحر . أيـــن العمـــق والأمـــواج الهادرة فيهما كما كان يقول سامح ؟ الفم الصغير لا قيمة له . مددت شـــفتي أنتظر قبلته ، فهرس صدغي ولم يقبلني . أنا أطحن الطعام ولا أقضمه . أرنب يحش الحشيش . فأر يقرض نشارة خشب . قرفته .

ضاع سامح وضاعت الصفقة.

قلت لضابط البوليس ، المحامون يسعون لتسوية ودية ، قال :

ــ وتهمة تهريب الآثار ؟

قلت مبتسمة ، شركتنا تتنازل عن البلاغ . قال :

ــ الأوراق حولت إلى النيابة .

يا فضيحتي .

لففت حبلا حول عنقي . جريت في فناء المحافظة كما جريت من سامح في النادي . السيارة أمامي وأدور حولها أبحث عنها . حولت الأوراق إلى النيابة . سين وجيم . مكتب مارينا للاستشارات والسمسرة يكشف أكبر عملية لتـــهريب للآثار، يقوم بها محقق تراث معروف . شهود أجانب ومصريون في القضية . تسجيلات . قطع آثار نادرة تم تهريبها . كل هذا ضاع . حولت الأوراق إلـــى النيابة ، وكنت أظنها تبقي بين يد ضباط الشرطة ثلاثة أيام . وشـــاهد الملـــك المغفل بائع العاديات على وشك الانهيار . منحته ألف جنيه ، ثم ألفين ، ويقول في الشرطة ابن الحرام : لا أعرف . لم أر . هذا ولد يستحق القتل . صبرا يـــا كلب .

قال ديفيد غاضبا مني : من يلعب بالنار يتحمل حرق ملابسه . وهذه عملية ملفقة من أساسها ، عملية غبية ، لا حنكة فيها ولا ذكاء . نصب . كان اتفاقنـــا

شراء العمارة أو المكتبة بالأصول . شركتنا ليس لها علاقة بهذا الموضوع من قريب أو بعيد . فاهمة .

يهددني .

هل أنا حمقاء إلى هذا الحد ؟ كلا . ديفيد هو الذي رسم خطوط تحركاتي . قال : الخيال الواسع يحقق معجزات . خيوط العنكبوت أقوى من الحبال . مسارات العدالة في مصر عرجاء . بيت جحا كله ألغاز . صندوق الدنيا يكشف المستقبل . الحياة صراع . المقامرة مطلوبة في عالم المال . المصريون عبدة أوراق . ورقة تفتح أبواب الجحيم وورقة تفتح باب الفردوس. المهم الدعاية . الناس تصدق ما يقال ويكتب . لا أحد يفكر في هذا البلد . الناس تؤخذ بالشبهات . هزيمة ٦٧ قائمة . شعب مهزوم يسعى إلى بطولة .. قال وقال .. صدقته ، وكنت أظنه يقف معي .

قال الضابط الأوراق حولت إلى النيابة ، مت . يا مصيبتي . أين أنت يا أبي ؟ لففت حبلا حول عنقي . جريت ..

أخاف أصابع سامح وقبضة يده . جراح عدته مناشير وشواكيش . علمني كنجار يرمم مائدة . دولابا . ترابيزة مطبخ . باب حمام . لماذا ونحن نأكل ؟ هل ضايقته إلى حد الانتقام أم قرفته إلى حد التقزز . والغريب أن ديفيد يتهرب مني هو الآخر . بقرة وقعت وكثرت سكاكينها يا مارينا .

رجوت أبي التدخل لدي المسئولين ، قال : فعلت . استرحت .

حذرني أبي في السابق من ديفيد . ووصفه بأنه رجل يتكلم كثيرا ولا يقول شيئا . رجل يبحث عن أشياء غامضة . مشروعاته تثير السخرية وغريبة . ربما لا يمثل هذه الشركة العملاقة . قال : الحذر واجب . عصابات تعمل في الظلام تحت شعار العولمة . لم استمع له . كان ديفيد يسحرني بكلامه اللذيذ . يثير في داخلي قضايا منسية . يكمل أحاديث أمي . جمع النبع بيني وبين

ديفيد . والنبع أسطورة حياتي . يغازلني في رفق ولا يتجاهل فتنتي .. يقول : قلب مارينا مفتاحه في يد سامح . ولا يطمع في مثل بقية الرجال .

خدعني ديفيد .

بنيت بيتا من الوهم . بيتا دعائمه من الظلمة وسقفه خيوط عنكبوت . طلع الفجر ذاب . أنا بقعة تراب على أرض صلبه . بقعة تراب هشة لا تلصق بالأرض ولا تقف عاليا .. أوهامي لا تصنع أسطورة ولا تصمد لقطرات ندى الفجر . جريت على أبي نادمة ، ابنته الوحيدة ، قلت :

ـ سوف أنتحر .

أبي لا يأخذ كلامي محمل الجد ولا يصدقه أيضا ، قال :

ـ من يعمل بالمال قلبه ميت .

كنت جادة في قولي ، وضايقني قول أبي . قلبي ليس ميتا . ذبحني أبي مرة ثانية ، ليس بيده ، كما فعل سامح ، ولكن بنظراته الساخرة . الصفقة ضاعت ، سامح وديفيد هربا . جف النبع . غلطتي أنني راهنت على قلبي ، ظننت أن سامح يطاوعني مهما فعلت ، وظننت أن ديفيد لن يتخلى عني مهما جرى ، لكنه خذلني هو الآخر وكشف عن وجه قبيح .

ديفيد ثعبان . سحب نفسه كالشعرة من العجين . لا ورقة أمسكه بها ، ولا كلمة واحدة وعد بها ، رجل أحاديثه فارغة ، كلا ، مرتبة ، قال أبي :

ـ ديفيد رجل داهية . مؤسسة بأكملها .

يائسة سألت أبي :

ـ هل يفتح الأستاذ عابد عبد المتجلي المكتبة ثانية ؟

قال :

ـ طبعا . من كبار الفكر في البلد .

ويدي علي قلبي سألته عن تهمة تهريب الآثار ؟ تبدل وجه أبي . أشعل سيجارا ، وانشغل عني بكأس نبيذ . فهمت الرسالة . انشغلت بمرآتي لعلها تكشف لي ما خفي عني . كنت أبحث عن مارينا وسط هذا الخضم . ذهبت عمولة مليون جنيه . وضاع سامح . وكانت مرآتي صامته . أغرقت صدغي بكريمات ملونة ، صنعت لوحة من الألوان تظهر أنفي وشفتي وعيني وتخفي جزءا من فكي الأسفل . الدكتور سامح معه حق .

قلت لأبي : أعمل جراحة في فكي . نظر إلي طويلا ، بعدها قال في حسرة :

ـ الخط المستقيم هو أقصر الطرق .

أحزنت أبي .

* * *

الفصل الرابع عشر
عابد عبد المتجلي زوغلي

الكلمة المكتوبة فيها سحر الدوام . الطلسم غير المتبدل والمتبقي في حاله علي حاله ، وتثريها السنين . ألق الكتابة نور ونار . وأنا حالفني حظي وسودت صفحات كثيرة . رحم الله جدي زوغلي باشا الكبير . حرقت مؤلفاته لما اختلف مع السلطان . ترك مكتبة لنا ، وغابت مؤلفاته . لم يدون شيئا يذكر بعدها للسنين القادمة فيما عدا خططه وتعاليمه . رسالة واحدة له نجت من مذبحة السلطان بأعجوبة تتضمن وصيته .

قال شيخ المحامين على الهاتف اليوم :

ـــ قطعنا نصف الطريق ، وتبقى الإجراءات .

صدقته على الفور ، فأنا أعلم الناس ببراءتي من هذه التهم. طلبت منه أن يزيدني علما ، رفض ، قال :

ـــ لا تشغل نفسك يا باشا بأمور الصغار . وقتك ثمين .

بعدها ، قال :

ـــ الوحوش لها سقطات يا سيدي أيضا .

حيرني قوله . صغار أم وحوش ، قلت :

ـــ دبرني يا وزير . صغار أم وحوش ؟

ضحك . سألني :

ـ تعرف مارينا أبو المحاسن المصري ؟

قلت :

ـ زارت المكتبة مرتين في غيابي .

قال :

ـ هذه امرأة جبارة ولا كل النساء . أما الشاهد الرئيسي فهو عيل يلعب في ..

توقف الرجل الفاضل عن بيان الكلمة القبيحة في صباح خريفي مشرق ، ضحكت وأكملتها في سري . فرح قلبي . هذه ليست نكبة البرامكة . قاربت المسألة على الانتهاء . خرجت . سرت في شارع القصر العيني . ابتعدت عن اليزابيث في الأيام الماضية بسبب هذه المشاكل . أعدت لها أوراق البحث مع مع السائق . وكنت أردد طوال جولتي كلمات معدودة علي إيقاع شواكيش محلات إصلاح السيارات والدهانات ، وفرقعات أتوبيسات النقل العام ، عيل يلعب في ..

دخلت مقهى بلدي في شارع قصر العيني ، أعرف صاحبه منذ زمن طويل ، وأجلس عليه من وقت إلى آخر عندما يشتد بي الحنين . سألني الرجل في لهفة عن سبب غيابي وحالتي الصحية ، وهل أنا بخير ؟ كنت في هذه اللحظة أكرر أيضا عيل يلعب في ..

هربت من نظراته . قلت : متعب قليلا يا حاج كامل . تركت القرفة اللذيذة وقمت . وقفت على الرصيف المقابل للمقهى على ناصية الشارع ، بي رغبة في استقطاب ما مضى ومعرفة أصله وفصله ، روحي سرحت وحطت من جديد في هذا الشارع . اليزابيث تسكن هناك في منتصف الشارع ، بعد محطة الدواوين بقليل ، وسهاد كانت تسكن على مقربة من شارع ضريح سعد باشا .

الضجة في هذا الطريق في تلك الأيام كانت محتملة . السيارات قليلة ، وفي منتصف الشارع ، يسير ترام ٣٠ من شبرا إلى مصر القديمة ، على قضبان لها جلجلة ورنين . هذه الضجة كنت أسمعها غناء في مرات، وعويلا في مرات أخرى . إيقاعات الجلجلة تتنوع، فقرب المحطة تطول الإيقاعات ويخمد رنين احتكاك العجل بالقضبان ويتحشرج ، قبل أن يهمد الرنين تماما عند الوقوف ، وعند القيام والاندفاع تلهث الإيقاعات ويعلو رنين الصليل حتى يبلغ ذروته مع اندفاع الترام . وبين المحطات كنت أسمع صلصلة القضبان مختلطة بصرخات أمي .

كانت لنا وقفات طويلة ، أبي وأنا ، عند محطة الدواوين ومحطة فم الخليج . أبي يبحث عن سائق السيارة التي دهست أمي ، وأنا أجمع أشلاء قلبي بسبب سهاد .

وابتعدنا عن شارع القصر العيني ، وانطلقنا في منطقة فم الخليج والمدابغ ، وتوغلنا في المناطق الفقيرة ، وتجمع حولنا الناس يشدون من أزرنا ، قالوا : امرأة فاضلة . كانوا يعرفونها . قال أبي : رحمها الله كانت لها شعبية في الأحياء الفقيرة . كنت شابا ، وتعرفت على بنات البلد ، وداهمني العشق مرة أخرى . تقرب أبي إلى معلمين كبار وتجار وعمال ، ناس من كافة الطبقات ، جلسنا إلى مقاهي فقيرة ، عارية من كل شيء ، ودخلنا إلى بيوت مهدمة ، غارقة في الفقر ومشاكل الصرف الصحي ،وأحببتها ، عائشة .

عشت الحب مرتين في هذا المربع ، مرة قرب محطة الدواوين مع سهاد ، فتاة تكبرني بعامين ، طالبة جامعية بينما أنا في المرحلة الثانوية ، ومرة مع بنت بلد في منطقة المدابغ ، عائشة وتقربني سنا . في البداية أحببت سهاد ، وكنت أسرق لحظات السعادة من فم الزمان سرا ، وأزورها في الجامعة صباحا ، ولما تعرفت إلى عائشة ، كنت أزورها ليلا في المدابغ .

أحببتهما سويا ، وكل منهما كانت لها منزلة في قلبي .

تركت دراستي وتفرغت لهما .

علمتني سهاد ما لم أعلمه أو أسمع به من قبل . فتحت أمامي أبواب السياسة المغلقة ، عائلتي وفدية ، وبعض فروعها لها ارتباطات بالقصر والأحرار الدستوريين ، وعرفتني سهاد على الحركات اليسارية والعمالية في ذلك الحين . وكنت بطبيعتي متحررا من تقاليد عائلتنا ، فانغمست في تلك الحركات إلى شوشتي .

فتحت سهاد عيني وفهمت . لهذا لما قامت حركة الجيش هتفت لها ، وأحببت محمد نجيب .

وكنت شابا ..

أما عائشة فقد علمتني معايشة الحياة ، أخذها كما هي ، فتاة فاتنة أمية ، حياتها شقاء من العمل في البيوت ، لا تطمع في زواج ولا استقرار ، أخذتني في البداية إلى بحورها بحكاياتها ، بعدها سحبتني معها ، ولما غرقت ، تناولتني في حضنها ، والقمتني صدرها الوفير ، أحببتها ، سحبتها إلى فراشي ، علمتني أمور الحياة ، قالت في أول ليلة لنا معا :

ـ هذه حياتنا ، نعيشها يوما بيوم ، بل ساعة بساعة .

في الأيام التالية ، قالت :

ـ عابد بك ، أنت يتيم الأم ، وأخواتك البنات هوانم ، يفهمون في الأصول ولا يفهمون في الحب .. أنت حبيبي .

كانت تحادثني كشهرزاد . تقول الصدق ، طاوعتها .

أغرقتني عائشة في الشهد والعسل . جائعا وعطشا وشابا فتيا ، غرفت من خيرها . ارتويت . ورفست نعمتي بيدي عندما طلع النهار وصاح الديك ، حاولت تعليمها غضبت ، قالت :

ـ عابد بك أنت صغير ، تلميذ .. تعال عندما تكبر . كنت أظنك كبرت .

اختفت عائشة من منطقة المدابغ وفم الخليج . وكان أبي مشغولا بالبحث عن قاتل أمي ، وكنت مشغولا بالبحث عن عائشة ، أبحرنا معا .

كلمات عائشة الأخيرة ظلت معي كأقوال شهرزاد . قالت لي قبل غيابها : فراشي الأرض وغطائي السماء . أنا لست فقيرة كما تظن .

أعطيتها نقودا ، وملابس جديدة ، ووفرت لها ما لم تحلم به ، لكنها هربت من نعيمي ، قالت :

ـ تعال عندما تكبر . وستجدني في انتظارك ، حينئذ ربما تعلمني القراءة والكتابة .

وكنت أظنها لا تهرب ، لكنها هربت ..

ضاعت عائشة وبلعتها الأرض . البسطاء في هذا العالم يغيبون بسرعة . يقتلهم المرض وتسرق أرواحهم الأوهام مهما كابروا .

عالم الأنوثة له تعاويذه وطقوسه . وشائج سرية تجمع بين نساء الأرض . هجرتني عائشة عندما أغضبت سهاد . الحب يأتي زرافا ، وإذا غاب غاب بالجملة . فقدت الاثنتين . خسرت سهاد وعائشة . خسرت من علمتني المادية الجدلية والشيوعية ، وخسرت من رشفت من جسدها عطر الأنوثة . ومع طيش الشباب ، كنت أقول ، فقدت يا عابد الدنيا والآخرة . أشعلت سهاد شمعة في رأسي ، وحرمتني من كنوزها ، لا قبلة ولا لمسة ، قالت : الكلمة وصال بيننا ، وساحة الفكر مرتعنا .

كانت دنيا زاد أختي ، تكبرني وتعزيني . تقول :

ـ عالم الرجولة أوهام . وأنت على العتبة ، بين بين .

قضبان الترام غابت عن الطريق ، مضى زمانها . وفي تلك الأيام كنت أخاف على نفسي من الترام ، حوادثه كانت كثيرة ، أخشى أن يدهسني بسبب سيري الأهوج وانتقالي من رصيف إلى رصيف . كنت عاشقا لاثنتين .

في شقة اليزابيث ، تذكرت ، سهاد ، كانت تسكن في الجهة المقابلة ، ودارها على شارع جانبي ، لكنني لم أجد الفيلا الصغيرة عندما نظرت ، رأيت عمارة ضخمة أسمنتية قبيحة . سهاد كانت تكبرني وربما رحلت ، أضاءت شمعة في رأسي في وقت مبكر ، رحمها الله .

غابت صلصلة قضبان الترام ، وحلت ضجة السيارات وزحام الناس . عائشة . سهاد . تك تك . بم بم . عيل يلعب في .. المكتبة . سامح . عيل يلعب .. دنيا زاد شفاك الله . قلب كبير وعقل راجح . الرحمة قبل العدل ، التسامح قبل العقاب . والحسن والقبيح يدركان بالفطرة . وأنا أدركت شيئا من الحسن ، وابتعدت عن القبيح ما قدرت .

وقفت .

خفت من عبور نهر الطريق . الحاج كامل على حق . كنت متعبا . ناديت تاكسي .

* * *

الفصل الخامس عشر

اليزابيث

قاربت إجازتي على الإنتهاء ، وعزمت على التخلص من أحزاني . أهـرب من شقة القصر العيني وألحق بكاتيا زميلتي في الزمالك . كاتيا تركتني فـي هذه الشقة وهربت إلى الزمالك . قالت : أعصابها لم تعد تحتمل .

أنا أيضا أعصابي لم تعد تحتمل الضجة وزيارات الأستاذ عابد الصباحيـة أيضا . كسرقلبي . ضجة هذه الشقة غير محتملة . كاتيا تقول إن ضجة شـقة قصر العيني لصقت بجسدها مثل الجرب ، وسوف تمنعها من العمـل لعـدة أشهر . عارضة أزياء عندها جرب . ضحكت . حككت جسـدي فـي الأيـام الأخيرة ، قلت : أصابني الجرب . صدقتها . اللحاق بها فيه نجاتي . رتبـت الشقة لتسليمها إلى البواب .

فتحت النوافذ لتهويتها اقتحمتها ضجة مرعبة . دهستني الضجة . صديقتـي معها حق . هذه ضجة موتورات طائرة نفاثة . كونكورد . صرعتني الضجـة واحتوتني . أصبحت في بؤرتها . هذه ليست شقة ، بل مطار .

أغلقت النوافذ ثانية . غابت عني الضجة وكأنني ابتعدت عن مطار . انتظر حماده لينقلني بسيارته . حذرته أمس . إذا لم يصل قبل الثامنة صباحا أقفز من النافذة . ضحك . أيامي في القاهرة أصبحت معدودة ، وأنا فـي حاجـة إلـى

راحة . الأستاذ عابد رجل تكالبت عليه المصائب ، وليس لـــدي وقــت لــه . مسكين . قلت : أهرب من الشقة .

ابن أخته الدكتور سامح ليس سيئا . وأنا ليست لدي خبرة ، فتاة صغـــيرة ساذجة . داعبته . جلست على ركبته . قبلته . أخرجت له لساني ، وضعـــت إصبعي في فمه . كل ذلك فعلته ولم أخفف عنه .

الأستاذ عابد رجل عجوز لا تسره مداعباتي الساذجة ، ولا يهمه مبـــادلتي الغرام . يهمه وقتي فقط ، وهذا لا أملكه ؟ في زياراتي القادمة إلى القـــاهرة ، ربما امتلك فائضا من الوقت ، أتركه له ليكتب عليه أفكاره بكلمات مختارة من معجم المعتزلة .

الأستاذ عابد يعشق الكلام ، وساعتي فرغ وقتها ولم تعد بها لحظة خاليـــة من مواعيد عمل ، لا وقت لدي سوى ساعات نومي ، وهذه لا تصلح للكـلام ، ولا تصلح أيضا لشيء آخر . ضحكت . مجـــون فـــي ضحكـــي . بمفـــردي وبقميص النوم . ضحكت مرة أخرى بحريتي . كل الرجال ذئاب ، وأكـــثرهم عدوانية الكبار منهم . سوء حظي أوقعني في طريق هذا الرجل و شـــباكه لا قاع لها . لكنني سعدت بمعرفته ، التقيته صدفة في الطريق ، وكنت قد قـــرأت بحثا له في اكسفورد ، مصادفة طيبة من مفاجآت القاهرة، فهنا النـــاس تلتقـــي دون موعد ، أعطاني الكثير من وقته. راجع أوراقي وزاد عليها هوامش .

وضع بحوثة الجديدة أمامي . إذا طلبت مقابلة أستاذ في جامعة أوربيـــة أو أمريكية حدد لي موعدا بعد سبعة أشهرعلى الأقل . ضحكت . الأستاذ عــــابد يأتي إلى شقتي ، ولا أذهب إليه . أنا باحثة محظوظة .

حضرت النقود . ثلاثون جنيها للبواب ، بقشيش ، ومائة وخمسون جنيـــها بقية حساب الشغالة . معي من النقود ما يكفي لشراء هدايا صغيرة لصديقي في لندن . اشتقت إليه . يضمني ولا يتركني قبل قوله أنه لا يشبع مني ، وأعــرف

أنه يكذب . يقول ذلك لفتيات أجمل مني وأكبر مني عمرا ، لكنني أحبه ولا يضايقني كذبه .

وضعت نقود البواب في ظرف ، ونقود الشغالة في ظرف . هذه المرة لست في ضنك . منحة الجامعة أكثر من كافية . صديقي يعشق الملابس القطنية ، وهذه سهل الحصول عليها من المحلات العامة وبسرعة .

فرغت من الشقة بأسرع مما توقعت . الساعة السابعة صباحا ، لست كسولة ، أفهم في شئون المنزل قدر فهمي للأدب العربي والتركي . لماذا تخصصت في لغات الشرق الأوسط ؟ قلت : لأتعرف على الأستاذ عابد عبد المتجلي زوغلي ، مؤلف كتاب فتاوى التنوير عند الشيخ الأمام محمد عبدة .

وقفت تحت الدش . أزيل التراب الخفيف الذي علق بجسدي ، أمي تقول إن الفتاة التي تستحق لقب أنثى يجب أن لا تعفر ملابسها بعد كنس الحديقة ، لكن تراب القاهرة ذراته غير مرئية ، وينفذ من مسام جسدي ويسمم بدني . تراب لعين . دعكت جسدي بصابون مرطب . تخففت من التراب ، باب الحمام مغلق ، فمنذ بدأ الأستاذ عابد يتردد علي شقتنا ، طلبت من البواب إصلاح الترباس .

ضجة الطريق لا تنفذ إلى الحمام ، تركت نفسي للمياه ، اغتسلت كما يغسل الموتى قبل الدفن . كنت أود النزول في النيل . أنا أحب السباحة الطويلة في مواضع الخطر ، لكنني خجولة . لا أسبح بمفردي . في أول يوم في إجازتي ، في بداية شهر سبتمبر ، قفزت وسط النهر من قارب . شجعني حماده ، قفزنا في المياه، بينما كانت كاتيا خائفة. قال : المصريون تماسيح النيل . صدقته . ذراعاه قويتان . يجيد السباحة . يغوص ويطفو كسمكة . يمسكني بنظراته . وزميلتي الساذجة تخاف عليه من الغرق ، وتمنعه من السباحة قريبا مني . تغار عليه .

ارتديت ملابس الخروج ، ورفعت شعري عاليا . لففت رقبتي بشال خوفا من التهاب اللوزتين . نشطة هذا الصباح ، كبرت عامين على الأقل في الفترة الأخيرة . سعيدة . أضحك . أمثل في مسرحية . فتاة تهرب من رجل يلاحقها . رجل يكبرها بأربعين أو خمسين عاما . لا يهم . اترك صورتي له مع البواب . صورة في اسطانبول وأنا ارتدي ملابس جبلية زاهية . صورة ألوانها مشعة تحت سماء صافية . ربما هذه الصورة تسعده . هذه مدينة يعرف شوارعها ومطاعمها من كثرة تردده عليها في صباه وشبابه . يأخذ الصورة ، يغفر لي هروبي . لا قبلات ولا حديث . العشاق يفترقون على قبلة ، لكنني لست عاشقة . أنا طالبة علم .

هل يتاجر الأستاذ عابد بالآثار ؟ لا أظن . رجل يعشق الكلام القديم ، لا تطاوعه نفسه على العبث بأثر أو ورقة . رجل يحقق في معاني الكلمات ، لا يقدر على تبديد قطعة أثرية .

انتقالي إلى الزمالك يريحه ويريحني . حسنا فعلت بعدم زيارته فى المكتبة . المستشرقات لا يترددن عليه . تأملت صورتي ، وجدتها لطيفة . صورة للذكرى . وضعتها في ظرف وأغلقته حتى لا أضعف وأكتب له كلمة وداع . فراق دون وداع ، عنوان دراما رخيصة . يخبره البواب بسفري ، يقول ، جاء واحد وصحبها إلى المطار . انتقل متخفية كاللصوص . تأملت ساعتي . تقارب الساعة السابعة والنصف . كروت البحث في حقيبتي . دخلت المطبخ وتناولت ورقة من الزبالة . سجلت نقطة أشار إليها الأستاذ عابد عدة مرات في أحاديثنا ، لكنني نسيتها "" الميل إلى تدوير القضايا كل نصف قرن من معوقات التنوير في الشرق . ""

معه حق .

* * *

الفصل السادس عشر

الدكتور سامح الدهشوري

طاولة الجراحة تختلف عن طاولة الروليت .

نجحت الجراحة ، وتحسنت حالة المريض . استراح بالي . قدمت إلى النادي بعد توقف عدة أيام ، شغلت فيها بعملي . هذه ساعة راحة بعد عمل شاق . ثقل الحجر يدفعه إلى سقوط . وهكذا الجراحة ، نجاحها في الدقة . وكنت محظوظا في الأيام الماضية . تخلصت من مارينا عن غير قصد ، في ضربة حظ .. لكن الأيام لا تعطي دون حساب ، خالي أحاطت به المشاكل ، قفلت المكتبة وتلاحقه الشرطة .

أشعر بالعار بسبب معاناة خالي . أنا ساكت عن الحق .

ابتعدت عن ملاعب التنس واتخذت مائدة على مقربة من حمام السباحة . مارينا تعشق الوقوف بالقرب من ملاعب التنس بزي اللعب لتظهر فتنتها . السباحة لا تروقها لأنها تخفي محاسنها تحت الماء . وتخاف حمامات الشمس حتى لا تسمر بشرتها ، فلا تظهر بالمايوه . وتقول إنها فتاة محتشمة . هه .

قدم حمادة جرسون فندق شبرد ومعه اليزابيث وصديقتها . فتى مكافح . أجريت له جراحة في قدمه منذ عدة سنوات بالمجان في عيادتي ، حفظ الجميل ، ورعى الود . أصيب في حمام السباحة في حادثة . وكانت الجراحة

مكلفة . رأيت مساعدته حفاظا على مستقبله . كان يبشر بسباح عظيم . لكنه توقف عن السباحة وتفوق في دراسة الفندقة .

أقبلت اليزابيث ناحيتي . وبقت صديقتها هناك . سألتني :

ـ المياه حلوة . هل تنزل اليوم للسباحة معي ؟

كنت أود السباحة ، لكنني تراجعت عن نيتي . قلت :

ـ أنا كسول اليوم . مرهق قليلا من العمل .

دعوتها إلى الجلوس ، قالت :

ـ غيرت مسكني فجأة ، أسافر بعد أربعة أيام .

هل يعرف خالي بعنوانها الجديد وموعد سفرها . قالت :

ـ أسافر إلى لندن الخميس القادم على الطائرة البريطانية المغادرة في العاشرة صباحا .

هذه الفتاة هربت من خالي وتخفي كذبها بصعوبة . النساء يكذبن قبل السفر . عظام وجهها وتجويف عينيها يؤكدان الكذب . الدماء في وجنيتها توشي بكذبها . سامحتها . اليزابيث في حاجة إلى راحة ، وخالي رجل عجوز لا يقدر على مسايرتها . هربت منه . سامحتها . كذبة صغيرة .

كانت زميلتها البريطانية تقف بعيدا . تلك فتاة قوية مليئة بالإثارة والأنوثة المتفجرة . رأيتها مرة بلباس السباحة ، لكنها لم تنزل المياه ، ملكة جمال . تقارب اليزابيث سنا ، لكنها من طينة أخرى . عارضة أزياء . جسدها فيه كمال التكوين الطبيعي مع امتلاء خفيف يقربها من المزاج الشرقي .

سألتني اليزابيث عن أبحاثي ، قلت :

ـ أقوم بتجارب تجمع بين ثلاث ثورات علمية ، ثورة العلوم البيولوجية ، وثورة الاتصالات ، والقدر الهائل من التقدم الذي حققته الهندسة الوراثية .

تابعتني ، قلت :

ـ كسور العظام وتلف فقرات العمود الفقري من الأمراض الشائعة في العالم الثالث ، وأنا أسعى إلى تخليق هذه العظام والفقرات بدلا من استخدام مواد غريبة . العلاج بمعالجة العضو الطبيعي وليس استبداله .

سألتني عن مدي التقدم ، قلت :

ـ بدأت في تجارب على الفئران والثعابين والقطط ، نجح بعضها وفشل معظمها .

ضحكت عندما قلت الثعابين ، وسألتني لماذا الثعابين وليس القردة ؟ قلت : الثعبان يعتمد في حركته على فقرات عموده الفقري . والثعابين في مصر أرخص من القردة .

سألتني عن تعاوني مع مراكز أبحاث عالمية ، قلت :

ـ شركة عابرة للقارات تود تقديم دعم كامل على الطريقة الأمريكية .

سألتني ، كيف ؟ قلت ضاحكا :

ـ على شريطة أن أهتم بمشاكل الركبة والقدم فقط .

نظرت إلى اليزابيث في دهشة ، قلت :

ـ قدم لاعب كرة واحد أو راقصة باليه واحدة أغلى من عظام الطبقة العاملة بأكملها . وهذه شركة تعمل في مجالات تطوير الطب الرياضي من الأجهزة إلى العلاج .

ضحكنا .

سألت :

ـ الأستاذ عابد يتابع هذه الأبحاث ؟

قلت :

ـ خالي تشغله قضايا التنوير وتجديد الفقه .

قالت :

ـــ منظومة الفكر لا تتجزأ . الفلسفة لا يمكن فصلها عن تطور العلـــوم ، وإلا جاءت فتاوى التكفير والتحريم .

اليزابيث معها حق .

أنا لا أعرف منظومة الفكر في الحضارتين المصرية القديمة والإســـلامية على نحو دقيق . النسق الذي دارت فيه العلوم . التقاليد والسحر جزء أيضا من منظومة فلسفة العلم . الخيال العام لأمة يحدد قدرتها على التقدم . خالي معـــه حق في اهتمامه بألف ليلة وليلة ، فهي سجل الخيال في الشرق .

استعدت اليزابيث للذهاب ، قالت :

ـــ كاتيا تخاف السباحة ولا تنزل المياه . هل تسبح معي ؟

قلت :

ـــ أود البقاء ساعة جالسا لا أفكر ، ولا أتحرك . أمامي عمل الليلة .

كنت أنا أيضا أكذب . لا أحد يتوقف عن التفكير ساعة يقظتـــــه . فـــهمت مقصدي ، قامت . هل اطلع خالي بانتقالها إلى الزمالك ؟ هذه فيها قطيعـــــة . ربما أصارحه بموعد سفرها ورقم الطائرة . ليذهب لوداعها في المطار . علق عطر اليزابيث بالمائدة ، ليتني نزلت إلى الحمام معها . مارينا أيضـــا كـــانت تغرقني في بحر عطورها ، ولا تقل فتنة عن الفتاة البريطانية الأخرى ، قلت : فضحها سيرة يا سامح .

وصلتني رسالة اليزابيث . أخبرتني بموعد سفرها بدقة ، لكنها لم تخـــبرني بعنوانها الجديد ، رسالتها واضحة .. لا مانع من إخبار خالي بموعد سفرها .

* * *

الفصل السابع عشر
بوشناق الطهطاوي

لا أعرف في بر مصر من يفزعه الظلم إذا تجرع سمه قدر فزع المشتغلين بالقانون في هذا البلد ، يفقد الواحد منهم ثباته ، وتدور به الدنيا ، بينما القانون لعبته ومصدر أكل عيشه ، والمحاكم والنيابات صنعت للتعامل مع هذا الوجه القبيح ولا هدف آخر لها . صارحت صديقي الدكتور عابد عبد المتجلي زوغلي برأيي ، قال :

ـ معالجة المرض يا بوشناق ليست كالوقوع فريسة له . الجريمة على الورق باردة ، والقانون نسق فكري متكامل وإجراءات ، ولا يفزعني في هذه المسألة سوى الإجراءات ، فالمشتغل بالقانون في مصر أعلم من غيره بسراديب النيابات والمحاكم . هذه بهدلة . متاهة . الداخل مفقود والخارج مولود .

ضحكت . معه حق .

كنا على العشاء ، شهيتنا نحن الثلاثة مفتوحة ، نفوسة أمامي ، وهو إلى جواري على رأس المائدة ، بعد تأكيدات الأستاذ أنور على بقرب انتهاء المسألة ، سألني عما في جعبتي من أنباء ، قلت :

ـ الخيوط كلها تجمعت في أيدينا . قبضت النيابة على الشاهد بتهمة إزعاج السلطات .

هز رأسه في حزن . وكاد يتوقف عن الطعام . يشدني إلى الحديث . نفوسة حذرتني من الكلام في القضية على الطعام ، معها حق ، لا فائدة ، أكملت :

ــ قابلت المحامي ورئيس النيابة ، ثم توجهت إلى النادي ، وعرفت ما خفي .

وضع الشوكة والسكينة وتفرغ لسماعي ، سألني :

ــ لماذا النادي .

حذرني الأستاذ أنور على من مفاتحة الأستاذ عابد بتفاصيل القضية نظرا لغرابتها ، قال : هذه مهمة الدفاع ، لا تشغل الأستاذ بسخافات قرن أفل ، أتركه يؤدي رسالته ، ولكن هاهو يحاصرني بعينيه في لهفة ، ينتظر القول الفصل ، وكيل نيابات ومستشار سابق ، أسئلته موجزة كاشفة ، ماذا أفعل ؟ هذه عشرة عمر ، وهو صاحب فضل ، ولا أقدر على رفض طلب له ، قمت إلى حقيبتي ، قلت أشغله عن القضية ، قدمت له مظروفا ، قلت : هدية من متيم بالمكتبة .

أنزل نظارته ، قال :

ــ هدية أم رشوة ؟ كان يتعين أن تكون حصيفا يا بوشناق ولا تقبل شيئا من أحد ؟

حقيقة من يلسع بالشوربة ينفخ في الزبادي ، ذهب الرجل بعيدا في مخاوفه ، سألني :

ــ أين حصلت على هذا المظروف المغلق يا بوشناق ؟

قلت ضاحكا :

ــ في نيابة التفتيش على الآثار . من ضابط عظيم كما يقولون في الشرطة .

رأيته خائفا وحانقا ، كرر قوله ، الحكمة والحذر واجبان هذه الأيام يا بوشناق . فتح المظروف قال :

ــ غريبة . شريط كاسيت ، هل هناك تسجيلات يا بوشناق في القضية ؟

ذهب بعيدا في مخاوفه . هذا أمر غير وارد ولم يخطر ببالي ولم يشر إليه المحامي أو وكيل النيابة ، تناولت الشريط ، قرأت : مختارات من موسيقى سعيد علي بهجت ، عزف على المندولين . شريط من معجب . من هذا المعجب ؟ عرفت تفاصيل القضية وجمعت خيوطها ، لكن هذا الشريط الذي ناوله لي واحد من الضباط كان يتابع حديثنا ، لغز جديد . من هذا الضابط ، ولماذا هذا الشريط القديم ، لا أحد يعرف موسيقيي سعيد على بهجت هذه الأيام سوانا .

عجزت عن الفهم وعن بلع لقمتي ، كان الرجل ودودا معي ، تسلمت الشريط في بساطة ، المرحوم سعيد على بهجت رحمه الله من الأحبة ، والمكتبة عامرة بموسيقاه ، هذا لغز .

نفوسة تتابع حديثنا ، فرحة في عينيها ، ولم تكن خائفة ، قالت :

ــ هذا الولد سحب مركبنا لما غرقت . حلمت به . كنت متأكدة . إحساسي لا يخيب .

وتصرفت .خطفت الشريط ووضعته في الجهاز ، وقبل أن ينطق أحدنا بكلمة ، انطلق العزف الشجي ، سرحت وصمت عابد . استمعنا .

لن أضيف شيئا هذه الساعة ، كفاني ما سمعته وما رأيته ، تعبت ، لا حماس لدي للكلام ، الأستاذ عابد حبيب وصديق وأستاذ ، ولكن الرحمة مطلوبة أيضا ، أنا جائع ، وهذه فرصتي للهرب من الكلام بالأكل . لكنه لا يتركني ، قال :

ــ موسيقى عذبة . رحمه الله .

لم أبلع الطعم . تابعت صمتي . شغلت ببلع طعامي الذي حشوت به فمي ، أهرب من الكلام بالأكل ، يتأملني ، ينتظر فرصة لينقض ، قال :

ـ لماذا ذهبت إلى نيابة الآثار ؟ ما هي الحكاية بالضبط يا بوشناق ؟

شبعت من الطعام ، لا مفر من الكلام ، صبره نفد . الغضب في عينيـــه ، الرجل طامع في معرفة ما يدور ، رويت ما توصلت إليه من مفارقات . وكان الكلام ثقيلا ، طعنات في القلب ، لكنني فضلت الحديث عن الصمـــت ، هـــذا حقه ، بعدها فجأة ودون مناسبة ، قال :

ـ أرحتني يا رجل .

نادي على نفوسة ، قال :

ـ حلويات الفرح للأستاذ بوشناق ، أفادنا أفاده الله .

لم تكذب نفوسة الخبر ، زغردت . وجدت نفسي كالأطرش فـــي الزفـــة . رأيته متماسكا وقويا ، طاوعته في فرحته ، فرحة لا محل لها ، وقت الفرح لم يحن ، لا يصح امتداح النهار قبل حلول الليل كما يقـــول الألمـــان ، فأمامنـــا الكثير .

قال :

ـ هذه عملية نصب يا بوشناق . وعمليات النصب أمرها سهل .

كنت مشغولا بالموسيقي ، وهذا الضابط الذي لم أكلف خاطري بسؤاله عن اسمه ، شغلت مع بقية الضباط ، وتناولت الشريط منه مختالا ، هـــذا ضـــابط معجب بالمكتبة ، لا أعرفه ، مكتبة عظيمة ، كدت أقول لبقية الضباط ، هـــذا هو الكلام ، سألت :

ـ من هذا المعجب يا أستاذ عابد ؟

ضحك . قال :

ـ هذا عشيق نفوسة في المنام ، ورأته طفلا يسحب مركبنا .

الوقت ليس وقت ضحك . كانت الموسيقي تشدني ، قلت أسأل نفوسة عنه فيما بعد . خجلت من السؤال عنه مرة أخرى ، قصرت . كان من الحصافة معرفة اسمه قبل تناول الشريط، لكنني كنت مشغولا بما هو أهم .

قلت :

ـ هذا الضابط تم نقله إلى الصعيد ، وكان رفاقه يحتفلون به .

تبدل وجه الأستاذ عابد ، وقف ثم جلس . قال :

ـ هذه مصيبة وحلت على رؤوسنا جميعا .

ضابط نقل إلى موقع آخر ، ما وجه الغرابة ؟ موجة تأخذنا للفرح وموجة تأخذنا للحزن ، ريشة في مهب الريح .

قال :

ـ هذه أمور أعرفها من خدمتي في الحكومة يا بوشناق . الحكاية واضحة . هذا الشريط تحية وداع . ضابط لم يرضخ تم عقابه بنقله ، الفساد له ركائز . هذا الوقت ليس وقت حركة تنقلات ، فهمت ، عرفت اسمه ولم أعرف أنه ضابط ، فاتني في المرات السابقة سؤاله عن مهنته . القضية لها ذيل يا بوشناق .

في خجل سألته عن اسم هذا الضابط ، قال :

ـ علاء العتر .

* * *

الفصل الثامن عشر

بوشناق الطهطاوي

ذهبت للقاء أبو المحاسن المصري في النادي كما أراد . ابنته مارينا سبب البلاء ، اطلعه عما جرى منها . وأعرف منه بحكم معرفة قديمة ما يدور .

طلبت منه موعدا في قصره ، دعاني إلى النادي . قبلت على مضض . في النادي تكون دردشة بيننا ، وكنت أوده لقاء عمل ، أعرف تفاصيل ويزودني بأوراق . ابنته متورطة ، وقال المحامي في مقدورنا ملاحقتها .

قال الأستاذ عابد أمس إن غلق المكتبة أو فتحها لم يعد يشغله ، المهم علاء العتر ، ومعرفة سبب نقله . إذا كان سامح ليس بعيدا عن غلق المكتبة ، وهو ومارينا في قارب واحد ، فأبو المحاسن ليس بعيدا عن نقل علاء العتر من القاهرة ، معارفه من كبار القوم ، وصاحب نفوذ .

القضية لها ذيل . فكم من الذيول تنتظرني ؟ الخالص أنني غرقت .

انتظرت .

جاء أبو المحاسن في موعده . يرزح تحت وطأة بدانة شديدة ، ويبتسم . الشحوم تتدلى من صدغيه ورقبته وتكبس على صدره كبرميل تسيح من حافته الدهون ، قال :

ــ حركتي أصبحت بطيئة يا بوشناق .

سألت عما جرى له في السنوات الأخيرة ، قال :

ـ الغدد والهموم يا صديقي .

يا حول الله .

أعرفه من باريس ، ليس صديقا حميما ، ولكننا معارف ، وكانت بدانته مقبولة في ذلك الحين ، وكنت أقول له إن الرئيس جمال عبد الناصر لو عرف بهذه البدانة ، لسحبه من البعثة ، فيضحك . كان في حاله ، وكنا نبتعد عنه ، وهو من جانبه لا يتطفل علينا ، ولا يقبل علينا إلا بدعوة . منفردا في معيشته ، متفرغا للدراسة ، راضيا بحاله ، في أوقات فراغه يلعب الورق ، وكان متميزا في لعبه ، ويزعم أن والده نصحه بلعب الورق في باريس ، وحذره من درب توفيق الحكيم .

دخلنا في الموضوع مباشرة ، ولاعبني الورق بكلمات قليلة ، وخرجت خاسرا من أول جولة . قال :

ـ الأستاذ عابد من خيرة المفكرين في البلد .

بعدها صمت . الدهون لا تمنعه من الكلام ، صوته خشن لكنه قوي ، قلت متعجلا :

ـ وماذا بعد ؟ مكتب الأستاذة مارينا قدم البلاغ ؟

نقل حديثنا وجهة أخرى ، سألني عما إذا كان الأستاذ عابد يتابع أبحاث الدكتور سامح الأخيرة في مجلات عالمية . ماذا أقول له ؟ الأستاذ عابد يشكو من آلام العظام فقط ، أما طب العظام فلا يشغله من قريب أو بعيد . بدأ أبو المحاسن اللعب ، يرمي بكلمات ويتركها ، ويلم الورقة رابحة بعدها ، أشرت إلى ابنته بطريقة فظة ، فأشار إلى ابن أخته في لباقة وبالمديح ، ماذا يقصد ؟ هل سامح متورط معها ؟ انتظرت . قال :

ـ قرن جديد علينا . عالم ركائزه بعيدة عنا ، والصغار يجربون .

كلام ملغز . فاتتني الورقة الرابحة ، قال :

ـ في الخارج يقولون ، إذا كان عرفات جلس إلى رابين ، فالشياطين يمكنها التفاوض مع الملائكة ، ورأيي أن الملاك هو الأستاذ عابد عبد المتجلي وليس ابنتي .

تفاوض على ماذا ؟ تسوية ؟ ربما يقبل الأستاذ عابد التسوية ، إذا أعيد علاء العتر إلى موقعه ، وتم الإفراج عن بائع العاديات المسكين . قال :

ـ مهمتنا كأصدقاء تسوية المسألة من الألف إلى الياء وليس التفاصيل .

سألته مباشرة :

ـ هل تدخلت ؟

قال :

ـ المسألة انتهت يا عزيزي بوشناق .

ردوده قاطعة . أجاب على تساؤلاتي قبل أن أنطق بها . هذه ليست مناقشة ، هذه محاورة من طرف واحد . أولئك الذين يعملون بالقانون شياطين في النقاش ، التفاوض لعبتهم ، كنت أتوقع أن يحادثني كصديق أو واحد من معارفه على الأقل ، لكنه حادثني كزبون في مكتبه ، إذا كانت المسألة إنتهت كما يقول ، فما هي حكاية الدكتور سامح ؟ لب القضية التي فيها القضاء على أمه دنيا زاد وخاله . أنا هنا لست لمناقشة أمور العائلة . هذه لها وقت آخر . شربت قهوتي . سألني عن أحوالي ، قلت :

ـ إقامة دائمة في العزبة . أحضر إلى القاهرة يومين أو ثلاثة فقط . التلوث والزحام يصيبياني بحساسية .

قال :

ـ حسنا تفعل . أنا أفكر في الإنتقال إلى منطقة ريفية ، ولكن كما تعلم والدي تخلص من أراضيه الزراعية قبل وفاته .

بعدها قال :

ـ قرأت كتابك الأخير يا بوشناق .

مت . تعب من الكلام . صدره يضايقه . يمسح عرقا خفيفا على جبهته . ويتزايد العرق حول رقبته الغارقة في الشحم . يفتح ياقة القميص . ينشف العرق . يغلقها ، حركة منتظمة كبندول الساعة . أنتظرت أن يعلق علىكتابي بالمديح أو الذم ، لكنه لم يفعل ، ولم اكترث لتجاهله ، كان يشغلني بفتح ياقة قميصه وغلقها .

قال :

ـ أنت تعرف أنني لم أقامر مرة واحدة في حياتي في لعبة الورق ، طوال سبع سنوات أمضيناها في باريس ، فأنا أكره القمار بأنواعه المختلفة ، في اللعب والحياة والحب ، ومن جانب آخر أراقب المقامرين في شغف ، أحبهم ، الدكتور سامح مقامر كبير ، هذه طبيعتة ، ثروته كونها من المضاربات وليس من الطب .

أعرف شيئا عن استثماراته المالية ، لكن تحول دفة الحديث علي هذا النحو المفاجئ كان غريبا ، وليس مقبولا ، مالنا والقمار وسامح ؟ قال :

ـ لا تتعجب . آتيك في اكلام .

ضايقني أنه اكتشف دهشتي ، كشفتني ملامح وجهي ، قال :

ـ ثروتي في يد ابنتي الوحيدة مارينا . تبدد الملايين وأصلح ما تفسده ، قدر استطاعتي طبعا ، خفت أن تبعثرها بعد مماتي فتتسول ، قامرت لأول مرة في حياتي يا بوشناق ، وضعت ثروتي كاملة تحت تصرفها ، قلت . تخسرها أمام عيني وتحت بصري في حياتي أفضل من خسارتها بعد مماتي .

حديثه عن ابنته بهذه الصراحة منح جلستنا شيئا من الحميمية ، قال :

ـ مع تصفية الحراسات في عهد الرئيس السادات عادت ثروتنا وافرج عن العقارات التي كانت مجمدة .

ث من الحديث عن الثروة . قال :

ـ تخلص أبي من أراضيه الزراعية قبل الثورة وعمل بالإنشاءات المعمارية ، كما تعرف ، وذلك علي خلاف كل الزعامات الوفدية في وقتها ، ولهذا لم يدخل في صراع مع الثورة في بداية عهدها . لكنه دخل في صراع مع الثورة في نهاية حياته ، عندما مال إلى جماعة الأخوان المسلمين المحظورة .

يفتح صفحات مطوية ، صفحات عاشتها الأجيال السابقة واكتوت بجمراتها . هل هذه ساعة تذكرها يا أبا المحاسن ، كيف أعود به إلى موضوعنا ، سألته مباشرة عن النقيب علاء العتر ؟ ضحك ، قال :

ـ هل لا تزال تحب موسيقى المندولين يا بوشناق ؟

قلت :

ـ أعشق موسيقى العود والكمان والناي والقانون والمندولين .

ضحك . قال :

ـ التقاسيم والسيمفونيات . أزهري في باريس . جبة وقفطان في الملبس وحداثة في الدماغ .

قلت :

ـ فضها سيرة . خلاصة القول .

عاد يفك ياقة قميصه ويغلقها ، قال :

ـ المسألة انتهت يا سيدي على النحو الذي يرضي الأستاذ عابد وليس ابنتي أو شركة بان أكس كوم . خذها كلمة مني يا بوشناق .

سألت :

ـ وعلاء العتر ؟

أجابني في امتعاض . قال :

ـ هذه مسألة ذيلها قصير .

كان الرجل متعبا . قلت :

ـ مسألة علاء العتر لها الأولوية . لنا لقاء آخر .

قال :

ـ خير البر عاجله . غدا نتقابل .

وافقته .

* * *

الفصل التاسع عشر

نقيب علاء العنتر

لست ذاهبا في عمل ، سرت على مهل حتى عمارة زوغلى باشا التي أصبحت محطا لعيون النصابين . النيل علي يميني ، ألقي نظرة وأتابع السير . لا أحد يتفرج على النيل في نهاره . الفرجة ما أحلى هذه الكلمة . النيل في الأقصر أمواجه صاخبة ومتصلة . ربما لا تسرقني مشاغلي وأتفرج عليه في نهاري .

انتهيت من أوراق القضية وسلمت ملفاتها ، واستعد للسفر إلى الأقصر . مدينتي المحببة . بعد قليل أعرف كيف مات خالي . الأستاذ عابد عبد المتجلي لن يبخل بالحديث معي . اطلب منه أن يروي تفاصيل الدقائق الأخيرة له ، هل تألم ؟ هل صرخ ؟ أسأله عن مصير مدوناته الموسيقية .

أخيرا ، وبعد ثمانية وعشرين عاما ، أجد من يحدثني عن رحيل خالي . أود سماع الحكاية من أولها وليس من أخرها .

حرمت من معرفة الحكاية بسبب صغري ، وبسبب المصائب التي تراكمت على العائلة برحيله ، رأيتهم مشغولين عن رحيله بإعلان الورثة ، ومفردات المرتب ، وبيان المعاش . بينما كنت أنا مشغولا بموته .

في الليل انتظر مجيئه ، وفي نهاري لا أكف عن السؤال عن سبب موته . أمي تقول : خالك ضاع في أقل من لحظة . شهقة لم يكملها زفير ، وخرج

السر الإلهي .

لا اعتقد أنها كنت سكتة قلبية . انسداد في الشرايين أو جلطة في الدماغ . خالي كان قوي البنية ، رياضي المسلك . رجل زاهد في الملذات من ناحية الطعام ، لا يأكل اللحوم ويكتفي بالسمك والبيض والجبن ، ربما كان مقتل خالي في كثرة البيض . بدين بدانة مقبولة . قلب طفل في داخله علي حد قول أمي . أما زوجاته عليهن اللعنة ، فكن يصفنه بالجنون وغرابة المسلك .

مات خالي وكنت في الإسكندرية في رحلة ، ولما عدت كان خالي في مقبرته .

ما فائدة المعرفة بعد كل هذه السنين ؟ فضولي يدفعني للسير . صفحات نفتحها في الكبر لنعرف ما غاب عنا في الصغر . نفتح أبوابا مغلقة ربما كان من الأفضل تركها على حالها . خالي ليس شخصية عامة ، يجوز التنقيب في أوراقها بسبب منفعة عامة أو مصلحة قومية ، لكنه الفضول ؟

ترك خالي العود والقانون والناي والكمان والراست والصبا ، وشغل بآلة غريبة والحان أغرب . ولما مات ضاعت أعماله من سجلات الفن .

الورقة أمامي : المكتبة مغلقة . ضحكت . من مصلحة الأستاذ عابد إزالة هذه الورقة . هذا مسكن . والأستاذ عابد رجل قانون وسيد العارفين .

أنغام المندولين خافتة وتتدفق خلف الباب مغلق . هذه الحان أعرفها . بـادر الرجل بسماع الشريط الذي سلمته لصديقة بوشناق الطهطاوي . بوشناق الطهطاوي رجل غريب هو الآخر . يحمل الدكتوراه من فرنسا في الفلسفة ، ويعمل بالزراعة في الريف . أسعدني اهتمام الأستاذ عابد بموسيقى خالي . هذه الألحان سوف تجعله يتذكر ويحكي .

موت صديق حادثة لا تنسى .

دققت الجرس ، فتحت نفوسة بسرعة ، وكأنها كانت تقف خلف الباب في انتظار قادم . رحبت بي . وأخذتني بموشح تحية . أهلا وسهلا . زارنا النبي . نورتنا . لا تترك لي فرصة لتأمل المكان . صوتها يطغى على نغمات المندولين . صوت نفوسة يحجب عني الرؤية . ويعطل ذاكرتي ، تركت نفسي لها ، وليس لعيني وعبق الماضي .

تبينت جاذبيتها . قالت :

ــ الأستاذ عابد في المكتبة .

قبل أن أنقل بصري ، أضافت :

ــ الأستاذ في الحمام . المكتبة مغلقة . لا مكتبة ولا قراءة . مصيبة وحلت .

. روائح طفولتي وصباي المبكر . داهمتني صور نسيتها . فيلم صباي . يأخذني خالي من حضانة قصر الدوبارة ويأتي بي إلى هنا . يشغلني بالرسم وتلوين الصور . يعلمني الموسيقي والغناء . الدنيا برد الدنيا برد . عم خليل يقطع ورد . أغنية طفولتي الغائبة . الأستاذ عابد يمنحني كوب اللبن ، وطوال الوقت يسألني : رسام أم مغني حضرتك ؟ مات خالي ولم أفلح في الرسم أو الغناء .

واقفة ترقبني .

هل تتذكر شيئا هي الأخرى ؟ ناديت فجأة في خبث . شيكولاته . استجابت . قدمت مبتسمة . طلبت منها فنجان قهوة على الريحة . هذه شيكولاته رفيقة طفولتي . ضايقني نسيانها . شغلت عنها في المرة السابقة . كنت في مهمة رسمية .

هذه المرة اترك شلالات الذاكرة لتتدفق ، واستعادة ما فات من أحلامي الصغيرة .

ردهات متسعة تؤدي إلى الجانب الآخر من الشقة . في صغري كنا نجلس في هذا الركن . مائدة صغيرة . دولاب كتب . مجلات وأوراق أضع عليها رسومي . أقص والصق . وتأتي نفوسة وتأخذني في حضنها . أخرج لها فول سوداني ، كيس لب . هذه المرة جيوبي خالية . لم أكن أعرف . ربما نسيتني نفوسة أيضا . المهم تذكر الأستاذ عابد .

نظرتها تؤكد معرفتها بي .

* * *

الفصل العشرون

بوشناق الطهطاوي

سجل أبو المحاسن المصري معي كبير .

في المرة الماضية أوجز في حديثه ، لكنه صدق ، مما يدل على أنه رجل واصل إلى فوق . المسألة انتهت ، صحيح ، من الناحية القانونية فقط ، لكن لها ذيول في جعبتي . لن أتسامح معه هذه المرة ، لن أقبل بصورة الحكم . وأطلب منه الحيثيات . الأستاذ عابد تهمه التفاصيل لا الحكم ، لسنا من حثالة الناس . نعم . الحيثيات ؟

علاقة الدكتور سامح بمارينا ؟ سر متابعة أبو المحاسن المصري لأبحاث الدكتور سامح ؟ هذه غريبة يا ناس . أبو المحاسن لا يعمل بالطب .

تريثت . يقبل ، ونسأله على مهل .

خسارة يا دنيا زاد ، سامح فجر . دقائق ويأتي أبوالمحاسن ، نصف لسانه يكفى هذه المرة ، في باريس قسوة الغربة دفعتنا للتسامح معه ، لكن هنا وسط الأهل ، لا تسامح .

هل كان يكتب أبو المحاسن تقارير فينا في باريس قبل هزيمة ٦٧ مباشرة ؟ حقيقة كانت البلد كلها غارقة في التقارير ، وهذه من نقائص الناصرية ، ولكن .. هذا لا يجوز من طالب علم .

جاء . قال :

ـ أهلا عزيزي أبو شناق .

قالها ، وجلس ينشف عرقه . يفتح ياقة القميص . يضع منديله حول رقبته ، ثم يقفل الياقة ويعيد الكرافتة . يفعل ذلك وصدره يعلو وينخفض ولهاثه لا ينقطع . صبرت عليه . قال :

ـ ليست لي خبرة بالزراعة ، وأنت سيد العارفين ، وأود شراء عزبة أو مزرعة .

قلت :

ـ الزراعة همومها كثيرة وأرباحها قليلة ؟

قال أبو المحاسن :

ـ لا أرغب في ربح ، بل مستعد للخسارة أيضا .

قلت :

ـ هي مضاربة إذن .

قال :

ـ نعم . هي مضاربة . مضاربة ضد موتي . مقامرة ضد سير الزمن . عودة إلى ما لا يقبل العودة .

بعدها ضحك ضحكة مجلجلة ، قال :

ـ أعجبك الكلام ، كله من الميثاق يا سيدي .

ابتسمت . الميثاق من يتذكره في أيامنا ؟ خفيف الظل رغم ثقل جسده وضيق تنفسه . صاحب حيلة في الكلام . مداخله لينة وناعمة . هل يرغب في مزرعة حقيقة ؟ لا أظن . جاء الجرسون ، حمادة ، توقفنا عن الحديث وشغلنا بطلب الطعام ، ماذا يريد أبو المحاسن ؟ بحوره واسعة وكلامه يقبل

التأويل ، مقاصده بعيدة ترمي على مائة فدان وليس على فدان واحـــد كرمـــش الحبيب . عشاء معارف أم إدارة صفقات . هذه مقدمة .

مال بجسده ناحيتي ، يود الاقتراب ، وتمنعه رقبته المغروسة في الشـــحم ، اقتربت منه برأسي ، استراح ، قال :

ــ أود مزرعة شبه صالحة . أجهزها بالميكنة الحديثة . مائة وخمسون فدانـــا على الأقل ، أزرعها فاكهة . أعشاب طبيـــة . القصـــد ، محـــاصيل غـــير تقليدية .

قلت :

ــ خير ما تفعل .

قال :

ــ سرا من وراء ابنتي مارينا .

قلت :

ــ هذه صعبة .

عاد إلى حذره . لا يصرح . ربما لا يكذب ، لكنه يذكر نصف الحقيقـــة . الأسهم والسندات يتم شراؤها وبيعها سرا ، أما الأطيان فلا ، الريف من الزحام كله آذان ، وصحة الشراء والبيع يلزمها الإشهار والتسجيل . سألني :

ــ ما رأيك في الأراضي المستصلحة الجديدة ؟

قلت :

ــ أسعارها معقولة ، وعائدها مضمون بعد عدة سنوات .

قال :

ــ تنقصني وصية شرعية تمنع مارينا من التصرف فيها قبل ثلاثين عاما .

ابتسمت . القانون لعبته ، وهو رجل لا تعوزه الحيلة ، صمت .

قال :

ــ أودها وصية غامضة مثل وصية زوغلي باشا الكبير .

كشف الملعون عن أوراقه مرة واحدة . هذا هو بيت القصيد . وصية زوغلي باشا الكبير . عدنا إلى المكتبة وهمومها ، حبست الكلام . رجل لا خير فيه . كالثعلب الماكر ، قال :

ــ لا تخف على الدكتور سامح من مارينا . مارينا لا تصلح شغالة في عيادته .

أراحني .

قال :

ــ مارينا تنوي إجراء عملية تجميل في فكها . تظن الساذجة العيب في فمها ، علمها تستخدمه في تبديد ثروتي يا بوشناق ، مارينا تنتقم مني .

قلبه مكسور . دجاجة مذبوحة بعد أن كان يحادثني كالطاووس . أكمل :

ــ السمسرة لها أصول . العمولات لها نظم . أما عمليات الضرب تحت الحزام والفهلوة فعمرها قصير في عالم المال .

هذه شؤون ابنته ، ولا أعرف عما يحدثني ، لكنني أتابعه ، قال :

ــ هل رأيتها في النادي ؟

قلت :

ــ قابلتها عند المحامي .

سألني عن رأيي ، قلت :

ــ في يدها قمقم فيه جني محبوس ؟

ضحك من قلبه . قلت :

ــ أعجبك القول ؟ من ألف ليلة وليلة .

زاد ضحكه ، قال :

ــ هو كذلك . سعك حق .

أبو المحاسن ليس حزينا بالقدر الذي يصوره . هو قلق فقط . إذا امتلكت مارينا جنيا ، امتلك هو خاتم سليمان . وصفها شيخ المحامين أمامي بقوله : فتاة فيها نزعات إجرامية متأصلة . وتفلت من السجن بتعويضات وتسويات مالية كبيرة . أكمل أبوَ المحاسن ما يدور فى رأسي ، قال :

ــ معرفتي برجال القانون في مصر وفرت لمارينا حماية من السجن . لكنها حماية مؤقتة ، أيامي أصبحت معدودة يا بوشناق .

ينطق بالكلام في رتابة ، ويتابع طعامه في نهم . شهيتة مفتوحة ويأكل أكثر من حاجته ، سايرته ، الرجل ضيف على مائدتي . يحادثني وكأننا في جنازة ، ويتابع الأكل وكأنه يسعد بذكر مشاكل ابنته . رأيت العودة إلى ما يشغلني ، سألته عن زياراته إلى باريس ، وكيف حالها ، قال :

ــ زياراتي في السنوات الاخيرة إلى باريس في معظمها زيارات عمل ، وبعضها للعلاج .

بعد قليل أضاف :

ــ باريس كما هي . يزيد تألقها بمر السنين ، وأحرص على زيارة المتاحف ، في مرات تعوزني القدرة على السير ، فأبقى في البار أو في المدخل ، كأنني في راحة بعد جولة في الأجنحة ، وفي بعض المرات أذهب لمشاهدة مسرحية أو فيلم . طقوس أحرص عليها . الوقوف علىالأطلال فيه متعة ، آه لو كنت شاعرا مثلك .

بطريقة فجة ، سألته عن التقارير التى كان يكتبها ، لم يرمش له جفن ، قال :

ــ كنت محافظا في شبابي ، معاديا لليسار بطوائفه المختلفة ، كلاسيكي

النزعة ، نشرت مقالات أسخر فيها من الجماعات الشيوعية في مجلات محلية وصحف غير معروفة ، وهذه المقالات كانت تحصل عليها بعض الجهات في مصر . كنت متطرفا في عداوتي ، هل تعرف أن أستاذي منعني من نشر هذه الكتابات وهددني بالفصل ؟ قال لي : السباب مجاله المعارك السياسية ــ وهذه لها تقاليدها . توقفت عن الكتابة .

قضم قطعة لحم كبيرة ، نهشها من الطبق ، قال :

ــ كنت في معركة وكل الأسلحة في الحروب مشروعة .

الكلام واضح ، لكنه لم يعترف بعد بكتابة التقارير ، قال :

ــ يا أخي من تسببت في فصله من البعثة سامحني ، وصرنا أصدقاء ، وأنت تفتش في دفاتر قديمة . العالم تبدل ، أصبحت مدافعا عن اليسار في عصر العولمة .

حقيقة كتب عدة مقالات مؤخرا ينتقد فيها سياسات صندوق النقد الدولي ، ويحذر من مخاطر العولمة ، لكنها في مجملها لا تضيف شيئا ، وتدخل في نطاق الشائع والمباح .

فصلت حواجز بينا دوما ، مهما سعينا إلى تقارب ، ومنذ عودتنا من البعثة لم يجمعنا لقاء ، ربما في مناسبات حزينة تبادلنا البرقيات ، عزيته في وفاة زوجته . كتابة التقارير كبيرة . اللعنة التي لا فرار منها . مسكين . مهما فعل أو تنصل ، تطارده هذه اللعنة . تسامحت معه في باريس وكنت لا أعلم ، كانت تخوفات طلبة ، أما وقد قالها بعضمة لسانه علي مائدتي ، فلا يجوز التسامح ، هذا هو الحد الفاصل بيننا . هذه المزرعة سوف يسلمها لمعارفه من الإسرائيليين والصهاينة ، هذا هو توقعي مهما تفاصح ، قال :

ــ السياسة لا أخلاق لها يا بوشناق .

صبرت . قلت آخذ ولا أبيع . حافظت على تقاليد الضيافة ، أحبس ضيقي ولا أظهره . لو كنت أصغر سنا كنت قلبت المائدة على رأسه ولعنت خاشه .

سألني لماذا تغيرت يا بوشناق ؟ وبعدها ، قال :

ــ زوجتي الفرنسية في سنواتها الأخيرة كانت تقول لي ، ابنتنا سوف تنتقم . وتعوضها عن سنوات عذابها . ربت البنت على كراهيتي .

أنظر له صامتا ، حديثه غريب . وتلميحاته عجيبة . علاقتنا لا تسمح لي بسماع تفاصيل تعاسته الزوجية بعد رحيل زوجته ، قلت في مجاملة غبية :

ــ رحمها الله غافر الذنوب .

قال غاضبا :

ــ لا رحمة ولا مغفرة.

فقد توازنه . هذه كلمات لا تصح ، ماذا أقول ؟ أكمل :

ــ في البداية كانت تدين بالمسيحية ، ويا سيدي بعد زيارة الرئيس السادات إلى القدس ، انقلب حالها ، صارحتني بأنها يهودية ، وهذه مقبولة ، لا بأس ، فرنسية يهودية ، يجوز الزواج منها ، ولكنني عرفت فيما بعد أنها إسرائيلية . في فراشي إسرائيلية يا بوشناق . حرمتها على نفسي .

سألته :

ــ ومارينا .

قال حزينا :

ــ تهددني بالسفر إلى إسرائيل .

اكتملت دائرة الخيانة ، وكشف المستور . من له إذنان فليسمع ، أصرخ في الفندق وألم الناس ، أجمعهم لسماع أبو المحاسن المصري : مزرعة ، عزبة ، شركة بان أكس كوم العالمية ، هدم مكتبة زوغلي باشا الكبير ، كلها

حلقات متصلة في دائرة الشر ، طبلت يا بوشناق ، وهبطت الأرض الرخـــوة علي رأسك .

سألني عن حالتي ، قلت :

ــ وعكة تفرم كبدي .

لأول مرة لم يفهمني المغفل ، وهو الذي كان طوال حديثنـــا يـــرد علـــى تساؤلاتي قبل نطقي بها ، قال :

ــ أمراض الكبد منتشرة في مصر حاليا .

طاوعته ، قلت :

ــ طبعا تنتشر .

ودعته بكلمات غامضة ، فررت . ماذا ينتظرنـــا ؟ حرثتـــا البحـــر لعـــدة سنوات ، وها هي أمواجه تغرقنا .

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

* * *

الفصل الواحد والعشرون

بوشناق الطهطاوي

أه يا بلد . نامت نواطير مصر عن ثعالبها .

ضيع أبو المحاسن رصيده من الأيام الحلوة ، ويظن المغفل أن شراء مزرعة يسعده فيما تبقى له من أيام . هيهات . ما يذهب من أيام لا تعوضه كنوز الأرض . ما لي به أنا الذي ربطت نفسي بالأرض وحافظت على الود مع السواقي وطلمبات المياه .

جلسة طويلة عريضة وكلماته غامضة ، خالية من وشوشة الزهور وهديل الحمام . لا كلمة واحدة طيبة . ذكرياته تعيسة وأحلامه لقادم الأيام مرعبة . . رجل لا يعرف الحنين . كلماته مغموسة بالخيانة . لا يعرف أن اللفظ سعد . التآمر دوما كلامه ساكت ، وحادثني في همس ، في كلمات مخنوقة من عنقها .

صوته ليس محبوسا بسبب الشحوم بل بسبب الخيانة .

اشهد يا شهر بابه يا أجمل شهور سنة على ما جرى من أبو المحاسن المصري وابنته مارينا في العام التسعة والتسعين وتسعمائة وألف .

ما يحيرني في فضفضة أبو المحاسن تصريحاته حول أمور بيته . هو رجل كتوم وبحوره عميقة ، يشتري ولا يبيع في الكلام، لماذا فضفض وفتح قلبه ؟ وهو الذي لا يعلم أحد شيئا عن أعماله المالية ، وله باع في اللعب

بالكلمات ، ورجل صفقات ومساوم زلق اللسان . هذه ليست زلة لسان . الرجل نيته ليست خالصة من ناحيتنا .

باعني أسرار أهل بيته ، وهو يعرف أنني لن أشتري شيئا ، ليبلغني برسالة ، رسالة يغيب عني مغزاها هذه الأيام ، وتكشف عنها الأحداث المقبلة . خيبك الله يابوشناق ، تركت الجبة والقفطان ووضعت البذلة الشيك ، وقدت السيارة الفخمة ، وبقيت كما أنت . فلاح من المنيا . يموت المعلم ويتعلم من أهل البندر . آه يا ولد الفلاحين ، ليس كل من ركب الحصان خيال ، وأحصنة أبو المحاسن في القاهرة تغلب حمير بوشناق في العزبة . نعم . الحذر واجب .

في مدخل العمارة رأيت سايس الجراج . تذكرت سيارتي التي نسيتها أمام الفندق . متعب من سهرتي الكئيبة . المسافة قصيرة . لكنني لا أود الرجوع . ناولت المفاتيح والرخصة للسايس ليتصرف .

قال الأستاذ عابد :

ـ عشاء فاخر . سهرة طيبة مع الذكريات . باريس يا سيدي ، يا بختك ؟ الطباخ غاب عنا اليوم ، والست نفوسة رفضت دخول المطبخ ، القصد يا بوشناق ؟ جبن وتمر كالسلف الصالح . وأنت ؟

مدخل من مداخله الطيبة . ينتظرني . الأستاذ عابد لا يشغله الطعام ، لا يتبرم بشوربة عدس ولا يسعده الكباب ، كل أصناف الطعام عنده سواء ، المهم جودة الطهي ، فهو ذواقة ، ونفوسة لن تبخل عليه بما يروقه ، وطعامها ألذ من طعام الطباخ . هذه مقدمة للحديث .

قال :

ـ كيف حال أبو المحاسن ؟

وبعدها نظر إلى ضاحكا ، قال :

ــ أنت تعرف ماذا أقصد ؟ قل بلا لف ولا دوران .

قلت :

ــ سمعت العجب . قل حكاية من ألف ليلة وليلة . قل رحلة السندباد . قل ..

قاطعني غاضبا :

ــ لا تزج بهذه الأعمال التراثية الراقية في معرض حديثنا عن أبي المحاسن المصري ، هذا لا يجوز ، أقوال أبي المحاسن لا تختلف في مجملها وتفاصيلها عن أقوال سحلول البهلول . ترهات وتخاريف ، أما شهرزاد ففي كلامها حكمة .

معه حق . كيف فاتني ذلك ؟ ندمت . أين علمك يا بوشناق ؟ قلت :

ــ الرجل زوجته إسرائيلية . بنته تهدده بالسفر إلى إسرائيل ، وتبدد أمواله عن عمد . يسعى لشراء مزرعة من وراء ابنته . يتابع أبحاث الدكتور سامح بدقة ، وأشار إلى بحثه الأخير . ورأيت هذا غريبا منه .

قال :

ــ أكمل يا رجل . زدنا علما .

هذا كل ما عندي ، هز رأسه مفكرا ، بعدها قال :

ــ ألم يسألك شيئا ؟

قلت :

ــ كلا . لم يعطني فرصة للحديث من أساسه . كنت مستمعا . وسمم بدني بكلامه .

بان خوف على وجه الأستاذ عابد ، قال :

ــ هذا كلام يتعين أخذه على محمل الجد . هذه رسالة يخلى بها ذمته أمامنا من تصرفات ابنته مارينا . مارينا تعد لعملية مهيبة أخرى .

ماذا تعد مارينا ؟ المكتبة وضاعت منها ، لا بيع ولا شراء ولا تفاهم ولا كلام ، هي مبالغات الأستاذ عابد . شطح به الخيال بسبب السهر . لكن الأمر لا يخلو من غرابة ، لماذا صارحني أبو المحاسن بأمور بيته وهو مثلنا من الفلاحين ؟ هذا هو بيت القصيد . قالت نفوسة :

ـ مارينا تحمل سكينا في حقيبتها .

ضحكت .

ينقصنا فتح المندل وكتابة عمل . القضية أمام النيابة وليست في يد العرافين والسحرة ، قال الأستاذ عابد :

ـ مارينا تعد شيئا . شيئا رهيبا . تود الانتقام من الدكتور سامح . قتله بالسم . بالمتفجرات .

أقسمت نفوسة برحمة أمها ، أنها سوف تذبحه . تذبحه مثل الفرخة بالسكين .

هذه سمة العصر . وماذا بعد يا نفوسة ؟ البلد كلها غارقة في الخرافات . باب الشعوذة فتح على آخره . هذه حكاية تنتظر من يدونها تحت باب كيد النساء . في الشرق كل الأبواب تؤدي إلى دوار شهرزاد فاتنة الزمان ، وهذه حكاية جديدة تنتظر من يدونها على الإنترنت في عصرنا الحديث . زهقت من الكلام ، سألت :

ـ هل انتهى الدكتور أحمد أبو الشرف من مراجعة البروفات .

قال :

ـ لا أعرف . ضاعت ساعات عملي اليوم في أمور دنيوية . زرت دنيا زاد في البيت . هددتني بالقدوم في عربة إسعاف ومعها طبيب وممرضتان . ذهبت إليها .

تراكمت الهموم علينا . دنيا زاد نواره سيدات هذه العائلة أصبحت مقعدة ومصابة . القصد .

قال الأستاذ عابد فجأة :

ــ أخفيت عني حكاية الولد بائع العاديات . هذا لا يصح يا بوشناق ؟ الولد مسكين .

آه . يسهر على غير عادته . ليمسكني متلبسا . ينتظرني لهذا السبب . لا يهمه أبو المحاسن ولا يود سماع أخباره . يهمه الولد شاهد الملك الذي ضللته مارينا . أوقعت به ثم تخلت عنه ورمته .. وقعت يا بوشناق . هذه ليلة لا نهار لها .

قلت :

ــ الصباح رباح يا جماعة .

قال :

ــ معك حق . هذه فيها حق عرب يا بوشناق . حق كبير ولن أتسامح ، على كل حال أنا تصرفت بما يمليه الضمير والإنسانية .

استمعت . لا أسأل ولا استفسر . إذا نطقت بكلمة فتحت بابا واسعا ، لن أسده هذه الليلة . تصرف ؟ هل زاره في السجن ؟ أو كلف محاميه بالدفاع عنه ؟ هذا لا يجوز ، بسبب تضارب المصالح . لن أسأل مهما كان شوقي للمعرفة ؟ كلمة أخرى مني فيها هلاكي هذه الليلة . قلت :

ــ هذه ساعة نومي يا سيدي .

ابتسم كطفل . قال :

ــ على راحتك . غدا لنا حديث .

كانت نفوسة أكثرنا غضبا وحزنا . تصيح الولد مسكين . حرام . حـــرام .
الظلم حرام .طلبت منها الذهاب إلى غرفتها . قالت :

ــ حاضر .

كلنا تعبنا من الكلام الليلة .

* * *

الفصل الثاني والعشرون
نقيب علاء العتر

تمام النغم مقياس العدل ونور الحقيقة . تمام النغم في كماله ، والكمال لا يعرف زيادة أو النقصان ، أما الطرب ـ آفة الشرق ـ فمنبعه نقص النغم عن تمامه .

هذه كلمات خالي سعيد علي بهجت ، وضعها كمقدمة مقال له عن علم تمام النغم ، وأغلب ظني هذا المقال لم ينشر . تمام النغم . نور الحقيقة . مقياس العدل . الكمال لا يعرف زيادة أو نقصان . ماذا يقصد بهذا الخلط بين النغم والحقيقة والعدل ؟ بالخلط بين السياسة والفن . هل كانت السياسة تشغل خالي بعد طرده من الجيش عام ١٩٥٤ إلى هذا الحد ؟

خالي كان ضحية وقيعة ، ولم يكن وحيدا في هذا الأمر ، وقع له ما وقع للأستاذ عبد المتجلي زوغلي في بداية الثورة وما وقع للأستاذ عابد فيما بعد عام ١٩٦٦ . ربما هذا هو سر الصداقة التي جمعت بين خالي وعائلة زوغلي باشا ، وحد بينهم الظلم .

تأملت ترتيب الكلمات كما وضعها . وجدته يربط بين تمام النغم وكماله من جانب وبين الحقيقة والعدل من جانب آخر .

جئت طالبا المعرفة . معرفة لمحة عن حياة خالي ولحظات رحيله . فشغلت ببعد مقاصده ، وأنا لست عارفا بأسرار الموسيقي ولا بأسرار السياسة

أيضاً . رمى بي الاستاذ عابد من كرمه في بحر ، ضفافه بعيدة . اغرقني في رحابة الفن وبعد الغايات والمقاصد .

بعد ترحيب نفوسة ، استقبلني الأستاذ عابد في مكتبه ، وقبل أن أفتح فمي بكلمة وضع أمامنا عدة ملفات مغلقة ، قال :

ـ هذه أوراق خالك . مخطوطات ، مدونات موسيقية للمندولين ، وصيته ، مجموعة صور .

أضاف :

ـ كل هذه الملفات تحت أمرك . الوصية موعد فتحها لم يحن بعد . تفتح عام ٢٠٠٢ وفق وصيته .

موسيقي خالي كانت تقدم في زمانه وتعرف على نطاق ضيق ، ويتم الاحتفاء بها من وقت إلى آخر ، أما مقالاته وبحوثه فهذه لم تنشر ولم أسمع بها ، في حياته أو بعد مماته . هذا غريب ، خالي كان عارفا بأسرار الموسيقي من النواحي النظرية والعملية ، سألت بحسن نية :

ـ لم تنشر مقالات خالي ؟

غرق الأستاذ عابد في الصمت . هز رأسه مرات قبل أن يفتح فمه ، قال :

ـ الكلمة المكتوبة باقية يا سيدي . إذا لم تنشر في حياة الواحد منا ، تنشر بعد رحيله . وقتها قادم لا محالة ، والبكاء على اللبن المسكوب من الزمان لا طائل منه . كل شيء بوقته .

اللبن المسكوب من الزمان قول بليغ . إشارته إلى القادم من أيام ، تعني أن مقالات خالي كانت ممنوعة في زمانه ، هذه واضحة . اقتصد في القول فزادني معرفة . من كرمه لا يشغلني بمشاكل المكتبة ، لا يسألني شيئا أو يطلب مساعدتي . أوراق خالي وملفاته أمامنا . تحت أمري ، قال :

ـ كنا اصدقاء . وجاء رحيله فجاة ، كان واقفا فجلس بسرعة ، قال : اه . مرتان او ثلاث وانتهي الأمر .

أمي على حق في قولها .

أكمل :

ـ كان في المكتبة مجموعة من طلبة السنوات النهائية في الطب ، قاموا بالواجب على الفور ، ولكن مشيئته نفذت .

قال :

ـ رحمه الله كان راضيا .

كان خالي راضيا بحياته أم بموته ؟ لم افهم .ماذا يقصد الأستاذ عابد بهذا القول ؟ تركته يكمل حديثه ، لكنه لم يفصح ، ومن جانبي لم أستفسر .. خالي مهنته تفرض عليه قبول الحياة وإلا تكلست أصابعه ، ولم تأت نغماته في تمامها . ربما العزف دربة أصابع ، ولكن التأليف وتدوين الموسيقي له منابع . ربما الحزن أحدها ، لكن الحان خالي ليست قاتمة ، بل فيها بهجة .

زوجته الأخيرة كانت فاتنة ، وكذلك بقية مطلقاته ، هل كان الجمال الحسي غايته ؟ الجمال الصارخ همه الأول ؟ هل كان ضعيف أمام النساء إلى هذا الحد ؟

قال :

ـ كان الملحنون يطلبونه لتوزيع أعمالهم الغنائية ، وفي معظم الأوقات يرفض عروضهم ، وكان يقبل إذا أعوزته النقود فقط ، وقد وزع معظم الأغاني الشهيرة في سنوات الستينات سرا ، ولكنني كنت أعرف ، ولا أناقشه في هذه المسألة .

فهمت .

خالي كان يعمل ذلك من أجل المال ، وليس من اجل الشهرة . همه الاول كان وضع مؤلفات للمندولين ، تلك الآلة الشجية التي فيها عنفوان وليست الـة نطريب مثل العود أو القانون . سعى الى تعليمي العزف عليها في صغـري ، لكنني خذلته .

ناولني الأستاذ عابد أحد الملفات . قال :

ـ هذا الملف يخصك أنت .

الملف يضم الرسوم التي كنت أضعها في طفولتي ، وكان الأستاذ عابد يطلق عليها لوحات ، ضحكت . قال :

ـ هذه الرسومات عايشتها لسنوات طويلـة . أسعدتني . كنت اتذكرك . وافتقدك . أعود اليها . لكنها من حقك .

تاملت الخطوط والألوان وضحكت . شخبطة عيال . أشكال ساذجة عبيطـة . قلت :

ـ لم أتقن الرسم ولا الموسيقي .

قال في لباقة :

ـ كل منا فنان على طريقته .

شهادة أعتز بها من رجل فاضل ، سألني :

ـ لماذا النقل إلى الأقصر والوقت ليس وقت حركة تنقلات ؟

قلت :

ـ هذه رغبتي .

قال :

ـ في الأمر غرابة تقلقني .

قلت :

ـ هذه رغبتي . أود دراسة المنطقة .

سألني :

ـــ من ناحية الطيور ؟

ضحكت . لا أقدر على الكذب في حضرته ، فأنا لا تشغلني الطيـــور ولا الحيوانات في الحضارة المصرية القديمة او المعاصرة ، يشغلني فقط الحفـــاظ على هذه الآثار العظيمة من السرقة و النهب و عوادي الزمن ، قلت :

ـــ مهمتي الحفاظ على سلامة الآثار .

فهمني . هز رأسه في تسامح . سألني :

ـــ متي نلتقي مرة أخرى ؟

قلت :

ـــ في العام القادم .

قال :

ـــ الملفات تحت أمرك من هذه اللحظة ، فيما عدا الوصية ، لا تفتح إلا بحلول عام ٢٠٠٢ ، في حضور أحد رجال الدين والمحامين ، هذه رغبة المرحوم .

تركت ملفات خالي ومدوناته كما هي أمامنا ، لم أمد يدي إليها ، ولم أتعجل حديثه حول تسلميها إلى اليوم ، سألني :

ـــ كيف حال شاهد الملك ؟

قلت :

ـــ ليس شاهدا . مجرم أزعج السلطات ببلاغات كاذبة . قدم أوراقـــا مـــزورة زودته بها مارينا . ولن يفلت من العقاب .

قام فجأة . انتفض . وقف يضرب الهواء بيديه . يزأر . يرقبني في حـدة . قال :

ـــ بلغت من العمر أربعة وسبعين عاما ، ولن أسمح ، أسمعني يـــا حضـــرة الضابط جيدا ، لن أسمح ، بالمساس بشاب ضللته امرأة عاهرة ، ســـجل يـــا

حضرة الضابط ، هربت الآثار وقبضت الثمن ووضعته في البنك ، وليس لـــي شركاء في الداخل أو الخارج ، وأتحمل وحدي المسئولية كاملة .

قطع نفسه بعد هذه الخطبة ، توقف ، سألني :

ـــ هل هذا يكفي للإفراج عن الفتي والقبض علي ؟

كان في ثورة غضب . قلت :

ـــ الأستاذ بوشناق زار الفتي مرتين في الحبس ، وكلف محام بالدفاع عنـــه ، وأرسل لعائلته نقودا .

قال :

ـــ هذا لا يكفي .

قلت :

ـــ رغباتك يا سيدي أوامر .

قال :

ـــ الإفراج عنه .

قلت :

ـــ أنت سيد العارفين بالقانون يا سيدي .

هدأ باله قليلا . جلس . تناول كوب ماء من نفوسة ، وقد أتت علي علـــو صوته ، قالت :

ـــ الشاب مسكين يا حضرة الضابط .

قال :

ـــ تمام النغم مقياس العدل . هذه نصيحة خالك .

في البداية كنت أعتقد أنه سوف يمدني بـــأوراق خـــالي ، لكنـــه ذكرنـــي بالشاب ، ولم يشر إليها مرة أخرى حتى لحظة قيامي . قال : هذه مهمتك يـــا بطل . تضايقت . هذه مقاصة ظالمة ، هل الإفراج عن المتهم شرط حصولي

على اوراق خالى ، لا أظن .

قال عند وداعي مرة اخرى :

ــ تمام النغم مقياس العدل .

ماذا أقول . معه حق .

* * *

الفصل الثالث والعشرون

نفوسة بنت النخيلى

قال الاستاذ عابد : حضرة النقيب نسى الحقيبة يا نفوسة . جريت على السلالم . ناديت . يا حضرة الضابط . وقف عند بداية السلالم . نزلت . في المرة السابقة لم الحق به ، لكنني هذا المرة ناديته وسمعني .

قال : فيه حاجة يا شيكولاتة ؟

بسمته حلوة ؟ الخالق الناطق سعيد على بهجت ، نفسي مقطوع من نزول السلالم . أنا لست شيكولاتة . أنا عجوز فاتها قطار الزواج والخلفة ، القصد . ضحكت انا ايضا . قلت :

ـ الحقيبة .

سحب مركبنا عندما غرقت ، ورأيته في المنام . إن شاء الله مارينا بنت المصري تدخل السجن علي يديه ويفك عثرتنا وعثرة الولد المسكين الصايع بائع الخردوات . الأستاذ عابد قلبه مكسور .

قلت : الحقيبة جاهزة . على شرط تأخذني إلى السينما .

منذ وفاة المرحوم سعيد على بهجت . لم أدخل سينما . والعيال بتوع المكتبة لا أحد منهم يهتم بي ، لا نزهة في فلوكة ولا حتى كيس ترمس أو كوز درة مشوي . المهم ليس الترمس أو الدرة ، ولكن التمشية على النيل في

صحبة واحد حلبوة ، لكن خيبهم الله ، كلهم على شاكلة الدكتور سامح ، من صينة واحدة .

يناديني شيكولاتة وأقول له يا حضرة الضابط . أيام . كنت أخذه في حضني ، مرات أبوسه ، ومرات أضربه . ولما كبرنا كان يعاكسني . لكنني كنت أحب خاله . دنيا . المرحوم سعيد كان يأخذني إلى السينما . أفلام عبد الحليم . فريد . يوسف بك . حسين رياض . فاتن حمامة . سعاد حسني . نادية لطفي ، يعزمني على كوكاكولا ويتركني . عنده شغل ، كلا يا نفوسة ، في تلك الأيام كانت الكوكاكولا ممنوعة ، منعها جمال عبد الناصر .. بعد الفيلم اتمشى في شارع سليمان وشارع قصر النيل أتفرج على المحلات ، لكن موت خاله . القصد . علاء بعدها نسينا ، ضابط له شنة ورنة . جاء إلينا برجليه ، نفوسة لم تلاحقة ولم تجر وراءه ، هذا حق عرب . النسيان قلة أصل .

سألت علاء أطمئن :

ـ تغيب عنا مرة أخرى ؟

قال : مامورية في الأقصر .

يسافر . يتركنا . خفت . مارينا في حقيبتها سكين . رأيتها معها عندما قدمت مع الدكتور سامح . وفي مرة أخرى جاءت بمفردها ، ورأيتها معها . بدلت الحقيبة وكانت السكينة بداخلها . هل تعمل مارينا بالجزارة ؟ سكينه كبيرة . لا تنفع في شغل المطبخ . سألت نفسي بنت أناس أكابر وتشتغل بالجزارة ، لا يصح ، حتى المطبخ لا يناسب مقامها ، أنا اليتيمة الجاهلة لا أدخل المطبخ ، سألت حضرة الضابط :

ـ الست مارينا تعمل بالجزارة في وقت فراغها ؟ هواية يعني ؟

تعكر وجهه ، وكنت أظنه سوف يضحك ، قال :

ـ ليه يا نفوسة ؟

قلت :

ـ في حقيبتها سكين من سكاكين الجزارين ؟

قال :

ـ بلطة ؟

قلت :

ـ سكين .

لا يصدقني . معه حق . وهل يعقل أن تشتغل ابنة ناس أكابر بـالجزارة ، سألني :

ـ كم مرة زارت مارينا المكتبة ؟

قلت :

ـ مرتين ؟

قال :

ـ قابلت الأستاذ عابد ؟

قلت :

ـ رأت صورته على الحائط ، ووقفت أمامها طويلا ، وبعدها صورتها .

قال :

ـ هل قرأت شيئا او تفرجت على الكتب والفهارس ؟

قلت :

ـ في المرتين تفرجت على التحف والتماثيل ، وكتبت بيانات كما يفعل الطلبة ، وصورت ، المكتبة حتة حتة في المرة الثانية .

قال :

ـــ والسكينة ؟

قلت :

ـــ مرة أخرجتها أمامي ، وفى المرة الثانية فتشت حقيبتها من ورائها وهى فـى الحمام ؟ رأيتها .

قال :

ـــ لماذا تحمل مارين سكينة معها ؟

قلت :

ـــ رأيتها في المنام وفي يدها سكين ، وسامح دمــه سـايح علـى الأرض . ذبحته .

تذكرت أن علاء ضابط ، ولن يصدق رؤيتي . قلت ، يومــك اسـود يـا نفوسة . سكت . قلت :

ـــ هو تحقيق يا علاء .

قال :

ـــ أنا أعمل لمصلحتك ومصلحة الأستاذ عابد يا شيكولاته .

تعبت . زهقت من السين والجيم . لن أذهب معه إلى سينما ولـن أركـب معه فلوكة . قال : أقطع لسانك . هذا ليس علاء العتر ، الآخر ربيته وعلمتـه الحساب ، هذا ضابط ، كلمته بنية حسنة ، سحبني في الكلام . امسكني امـام الأسانسير ولم يتركني . صحيح ، إذا كان إصبعك ضابط أقطعه وأرميه فـي النار . قال :

ـــ أسجنك . فاهمة .

خاب أملي فيه كما خاب في كل الطلبة من قبله . أين المرحوم سعيد علـــى بهجت حبيبي ؟ نزلت دموعي بحور . وقعت . صرخت . خرج الجيران .

يا فضيحتك يا نفوسة .

* * *

الفصل الرابع والعشرون
مارينا أبو المحاسن المصري

لاعبني دافيد بالكلمات ، وفي جمل ناقصة اتهمني بضياع الصفقة . كيف ؟ لا أعرف . قال : الصفقة لم تتم ، وهذه .. ويصمت . وبعدها على الفور يهددني . إذا سألته شيئاً تجاهلني ، وإذا دافعت عن نفسي ، قاطعني في ازدراء قائلا : الصفقة لم تتم .

يهددني إذا لم أصلح ما أفسدته . يتطاول على أبى ويهدد بغلق مكتبه . كنت أظنه في البداية يغازلني بطريقته الخشنة التي اعتدت عليها ، قبل أن يطلب مني رقصة أو قبلة : لم أهتم . الرجال تكشفهم نظراتهم وليس أقوالهم . تأملته . لدغ الثعبان في نظرته . يحرك رأسه وعيناه ثابتتان في محجريهما . ثعبان يرفع رأسه ويتلصص النظرات ويندفع . خفت . دافيد رأسه راس ثعبان . لا رقبة له مثل أبي . رأسه يلتصق بجسده مباشرة . يرفع رأسه وينطلق . لا يعرف النظرات الجانبية . بل يحرك رأسه كله نحو الهدف . قال :

ـ البنات في الشرق لا يصلحن للعمل المالي . همهن الحب وليس تراكم رأس المال .

أفزعني حديثه . أنا سيدة أعمال . ومكتبي محط رجال الأعمال . فتحت أمامه الأبواب المغلقة . لي اسم في عالم البيزنس . معارفي من كبار القوم .

ورثت عن أمي الجلد . حقيقة لا أحد في مصر المحروسة يعرف أنني زهــرة جبل صهيون . لكنني أعرف ، هذا قدري . نهرته ، قلت :

ــ أمي من حيفا . أنا زهرة جبل ..

ضحك طويلا ، قال :

ــ كنت أظن ذلك .

ثم أكمل ساخرا :

ــ حب المال لا يعني القدرة علي صناعته .

هذه سعه حق فيها . أنا أعشق الحصول علي النقود وأهوى فتح حســابات في البنوك ، ولذتي في إنفاقها . بعثرة النقود هوايتي . أحصل عليها بســهولة لأبعثرها .

قال :

ــ المقر الرئيسي لا يقبل العبث .

يخاطبني وكأن شركته مشغولة بما يدور في القــاهرة ويهمــها مارينــا . عمارة عبد المتجلي زوغلي يمكن الحصول علي أفضل منــها . مخطوطــات المكتبة لا قيمة لها في القرن القادم . الدكتور سامح يمكن شراء أبحاثه بالمال . أين القضية ؟ كل الرجال وحوش . فعلت ما طلبه مني ، وفي النهاية يتــهمني بضياع الصفقة . هذا لا يجوز . ماذا أفعل ؟ قطة ساذجة وسط أسود . خسرت سامح وأغضبت والدي ، وفي النهاية يلومني دافيد ويهددني . ابن الحــرام . لا يود الوقوف معي . بل يهاجمني بطريقة مقززة . الشرطة والنيابات تلاحقنــي . أبي غاضب وساخط . سامح يتجاهلني كنكرة . صورتي في أبواب الحــوادث . صورة مارينا ، الفتاة المدللة لا تتصدر صفحات الأناقــة والاجتماعيــات بــل نشرت وسط مجرمين ونصابين . ودافيد يتهرب . وربما يتركني ويهرب مــن مصر فجأة .

طلبت من المحامي مقاضاة الصحف الصفراء التي هاجمتني . أولئك الأوغاد يكتبون قصصا غريبة عني . يصفونني بالغولة ، وأم أربعة وأربعين . تحدثنا . قال :

ــ لن نفتح جبهة جديدة . هذه أمور تسوى فيما بعد .

مارينا صورتها إلى جانب امرأة قتلت زوجها وقطعت جثمانه ، يا مصيبتي . امرأة وضعت أشلاء زوجها في زكائب . رمت واحدة في المنصورة ، والثانية في النيل عند الجيزة ، والثالثة قرب أبو رشين . رأسه في الشمال وقدماه في الجنوب . ضحكت . معها حق هذه المرأة . أتفهم مشاعرها . أنا أيضا أود تمزيق جسد الدكتور سامح . أرمي بيده اليمني في سيناء ، ويده اليسرى في الصحراء الغربية . بقية أجزاء جسده لا يهمني مصيرها . أرميها في المجاري الطافحة في القاهرة ، في ترعة متعفنة ، في أرض رملية ، طينية ، لا يهم . المهم فصل يديه عن بعضهما ، واحدة في الشرق والأخرى في الغرب . تشرق الشمس علي يد قبل الأخرى . هذه لعنتي .

مارينا نقيض إيزيس . أبعثر القطع الممزقة ، ولا ألمها . من يستحق نقمتي في البداية ؟ سامح أم دافيد أم أمي التى أنجبتني وتركتني أم أبي الذي يقف إلى جواري في الأزمات ؟ لا أعرف . أترك ذلك للصدفة . للقدر . نعم . القدر هو أعظم وأسمى القتلة . قتلني قدري قبل مولدي . لماذا ؟ هو قدري . نصيبي في الحياة . لا تفلح مقاومة القدر . استسلمت . مضيت أطوعه ويطوعني . ورقة في مهب الريح العاتية . لاعبني قدري ولاعبته . هزمته بنقاط وهزمني بضربات قاضية . ما أحلي هذه الكلمة . قدري . هو كذلك . لا بكاء علي الأطلال ، ما جرى وقع ، ولا فائدة .

غرس دافيد فى روعى أن القوة والخيال يحققان الاســـصير . صدقتـه . شركة بان اكس كوم عابرة للقارات . لها سلطة . ومال . ونفوذ . ميزانيتـــها تفوق ميزانيات دول القارة الأفريقية . القوة والخيـــال همـــا طريـــق تحقيـــق الاسطورة . غزو الفضاء . استنســـاخ البشـــر . تدمـــير القمـــر . الاتصـــال بالكواكب . كلها كانت في السابق أساطير ثم تحققت . الحقيقة تولد دوما مـــن رحم الاسطورة .

التاريخ تراقص علي كفي ينتظر . بواباته مفتوحة لأصنـــع أســـطورتي . ينقصني الخيال فقط . أما القوة فهو كفيل بها . صدقته . طاوعته . سرت فـــي ركابه . بقرة عمياء في ساقية دائرة . ناقوس في رقبتها يفضحها إذا توقفـــت ، وسياط تضربها لمعاودة الدوران . بقرة تبول وهى دائرة ، وبعد هذا الشـــقاء نصيبها حزمة برسيم . لماذا يا مارينا هذا الهوان ؟

يزعم أن عصارة التاريخ في دمي . والاسطورة تغازلني لامسك بـــها . لا يعرف المغفل ان الواقع في القاهرة المحروسة يهزم كافة الاساطير ، ليس لانه بلغ من العقلانية شأنا عظيما ، بل لأنه أكبر أسطورة . أمي اليهودية كـــانت تحذرني في طفولتي من النداهة . تقول : مصر نداهة كبيرة ، تبلع ، جذورنـــا في أرض العسل واللبن ، هناك . وبعد تولى الرئيس السادات ، قـــالت إنـــها إسرائيلية ولا تقبل الحياة سوى في أرض الميعاد . وايامنا هنـــا فـــي مصـــر عابرة . رفضت صحبتها . ماتت مقهورة . هزمها أبى بحكمته . حكمة أبـــي الهول : الشموخ والصمت .

الأسطورة الكبيرة تبلع الصغيرة . هذا ما فات أمي ، ولن يقدر دافيد أيضـــا على فهمه مهما حاول ، النظرة الامريكية لا ترى أبعد من قدميها مهما توغلت في الفضاء . ما يهمني حاليا الخلاص من هذه الحبال التي تحيـــط برقبتـــي ، كيف ؟ لا أعرف .

أسافر إلي الخارج . قال لي المحامى في حزم :

ـ السفر إلي الخارج يوجل .

لم يجرحني ويقول ممنوع ، من تنشر صوره في الصحف لا يغادر البلد إلا بإذن قضائي ، هذه أعرفها . لست ساذجة ، لم أناقشه ، قلت : أهرب كما يهرب بقية الناس بالفلوس . نصحني بالهدوء ، ضايقتنى أقواله الغبية . قلت لنفسي : أنتحر .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

عابد عبد المتجلي زوغلي

أخرجت أوراقي ودونت . طالت أيامي ، وقبح طعمها . لا مفر من فتح الخزينة وكشف الأوراق القديمة . اللحظة التي كنت أخافها في السابق ، وملت أبي وهي كالغصة في حلقه ، أضحت ضرورة ، أتجرع غصتها كما تجرعها أبي لحظة رحيله ، لست على فراش الموت ، لكنني كالميت . لا أود خسارة الدكتور سامح ، لا أحتمل شكه ، ولا أقبل معاداته لي .

طلبت من بوشناق أن يرتب الأمر بطريقة تقليدية ، وفقا للشرع والقانون ، وأن يجعلها مناسبة مرحة ، هذا حفل تبدل الزمان على الزمان وليس جنازة . تفض أختام الوصية في حضور رجل دين ومحام وأثنين عدول في حضرة كافة الورثة من أصول وفروع .

من يود تسلم المكتبة ويتعهد بالحفاظ عليها يتقدم ، ويعلن عن رغبته أمام الجميع . حددت موعدا يتفق مع موعد خروج أختي دنيا زاد من المستشفي . حالتها ليست خطرة واستعادت بعض قوتها . قلت لنفسي : مسك الختام .

موسوعة التنوير اكتملت أجزاؤها ، تنتظر الطباعة ، وهذه مهمة بوشناق والدكتور أحمد أبو الشرف . مراجعة البروفات ، وتصحيح بعض الهوامش وكتابة المقدمات . هذه هي أواخر الأيام .

نفوسة تشدو ببيت من الشعر لأبي نواس في الخمر . ضحكت . عليك اللعنة يا نفوسة . الطرب جوهره العشق . وفاتنا العشق وبقي لنا الوجد . نصيبنا .

كمال النغم في تمامه بلا زيادة أو نقصان . تمام النغم مقياس العدل . بينما الطرب سحر الليالي وآفة الشرق . صدق سعيد على بهجت . كلامه حكم . سلمت أوراقه إلى ابن أخته . أودعت وصيته عند المحامي ليفتحها عام ٢٠٠٢ في حضور ورثته .

استرحت من هذه الناحية .

اتفقنا أمس الثلاثاء على البدء في إصدار موسوعة التنوير مع بداية عام ٢٠٠١ ، في مطلع القرن الجديد . ستة أجزاء تتضمن مناقشة قضايا أساسية أهملت . وتفند مزاعم سادت لعدة قرون . موسوعة إسلامية حديثة عمادها العقل واحترام حقوق الإنسان والديموقراطية . راجعها ثقاة وأشاد بها رجال فكر . فرغت من هذه المهمة . لا ينقصني سوى تطوير المكتبة وتزويدها بالإنترنت قبل الرحيل . مهمة اتركها للأحفاد في العائلة ، وقد خذلني الدكتور سامح . عزيزة أظهرت براعة في التعامل مع وسائل العصر الحديث ، وفيها الكثير من ملامح اليزابيث . نقيصتها أنها مشغولة بعلوم البيولوجيا والوراثة وليس كتب التراث ، وهل هذه نقيصة يا عابد ؟ حرام عليك هذا القول .

زارني علاء العتر مؤخرا ، كلانا تشغله أوراق قديمة ، يروقه الحديث عنها ، مهما كان الحديث مثيرا للشجون . سألته عن أبناء خاله المرحوم سعيد ، قال : كلهم أطباء ناجحون مثل والدتهم . لا أحد منهم تفرغ للفن . هززت رأسي ، أكمل : ماتت والدتهم بسرطان الدماغ . قال : عانت هذه السيدة كثيرا مع خالي .

وافقته .

أعرف . كان المرحوم سعيد متقلب المزاج . مشاعره في أطراف أصابعه وليس على لسانه . ذهنه وقاد . عالمه نغمات سارحة . كيف يعيش مع امرأة تقدس المواعيد والشكليات ، يصفها بأنها ناظرة مدرسة ، جمالها الحسي لم يخفف عليه من قسوة نظرتها للحياة ، ترك لها البيت والأولاد وتفرغ لفنه . مسكين . رحل قبل أن يكمل الخمسين .

سألني فجأة علاء العتر عن سبب طرد خاله من الجيش عام ١٩٥٤ ، وعدم نشر دراساته الموسيقية ورفض السماح له بالتدريس في المعاهد العليا ؟ كررت قولي : البكاء على اللبن المسكوب من الزمان لا يفيد . قال : هذه الدراسات يمكن نشرها في الوقت الحاضر ؟ ضحكت ، قلت : طبعا . لا أحد يعادي المندولين أو البيانو أو العود في وقتنا الحاضر . شاركني الضحك . قال : والمذكرات ؟ قلت في عام ٢٠٠٢ لن يتذكر أحد أزمة مارس ١٩٥٤ وتفاصيلها ، سوف يرجع لها المؤرخون فقط .

نصحته بنسيان اللبن المسكوب ، بينما يشغلني أنا جمعه .

قال : تمام النغم في كماله . تجاهلت قوله . مشاغلي لا تسمح بالخوض في أمور النغم وبدايات الثورة ، من الفن والسياسة في بلدنا ما قتل . هذا الفتي كفاه حراسة الآثار . طردنا أبي وأنا من الحكومة على فترات متقاربة ، طرد أبي عام ١٩٥٤ وطردت أنا عام ١٩٦٦ .

الحاصل ، الصفحات المطوية قدري . تشغلني وصية جدي زوغلي الكبير ، وتشغله أوراق ومؤلفات خاله .

في خزانتي ترقد وصيتان مغلقتان : وصية جدي زوغلي باشا الكبير ، ووصية أبي عبد المتجلي بك . أخرجت وصيتي وأعدت النظر فيها قبل أن أضعها أمام الورثة .

كتب جدي الكبير في وصيته : أن الذكر من صلبه الذي لا يحـــافظ علـــى حرمة أهل بيته ، يحرم الذكور من أبنائه من المكتبة والأوقـــاف المخصصـــة لها ، وتؤول كلها إلى صغرى بناته . وقد سار على نهجـــه بقيـــة جـــدودي ، وانتقلت المكتبة مرة خارج العائلة ثم عادت إليها. وصية غريبـــــة فـــي بابــــها ونهجها . وكان يصفها الدهشوري بك بأنها تاج عصر ذلك الزمان . وصية لا يجود الزمان بمثلها ، ويتهم أبي عبد المتجلي بك بانتهاك الوصية . فقد مـــاتت والدتي على محطة ترام ، وظل جثمانها مطروحا علـــى الرصيـــف ، بســـبب العطلة ، وعدم القصاص من السائق فيما بعد ، وهذه كلها أسباب شرعية تفســد منحي المكتبة .

وكانت حيثيات الدهشوري بك لحصول زوجته دنيـــا زاد علـــي المكتبـــة قوية ..

موت أمي وعدم العثور على المتسبب ، حقيقة عذبت أبي سنوات كثـــيرة . وكان أبي حزينا من هذه الناحية . وفي شبابي المبكر لم يطلعني أحد علي هـــذه الوصية الغريبة . وكنت أرى حزن أبي وأرجعه لفراق أمــــــي ورغبتـــه فـــي القصاص من الفاعل ، كنت لا أعرف سر حزنه ، لكن أخواتي البنـــــات كـــن يعرفن ولا يتحدثن معي .

الدهشوري بك زوج أختي لم يكن رجلا ساذجا أو طامعا ، بل فقيـــــه فـــي القانون ومتزمت في ملسكه وطباعه ، وكان أبي يصفه بأنه من الغـــــلاة فـــي الدين ، ويقول لنا : الغلو أساس التطرف والفرقة ومدعاة الكفر ، ولنا عبرة في التاريخ .

ولكن ،

ألم تكن هذه نية جدي زوغلي باشا الكبير ؟

خلافنا حول تفسير الوصية جمرة مشتعلة تحت الرماد في أسرتنا ، وجاء الدكتور سامح ونفخ فيها . قال علاء العتر ، تمام النغم في كماله ، تمام النغم مقياس العدل ، رجف قلبي ، تأملت أوراقي قلقا بعينين مغلقتين ، لا أقرأ ، بل أرى سيرنا في الشوارع والطرقات الجانبية نبحث عن قاتل والدتي . أيام تركت بصماتها على روحي أكثر من محنة طردي من الحكومة فيما بعد .

في شرفة اليزابيث في شارع قصر العيني ، بزغت تلك الأيام ، سمعتها ضجة ، ثم رأيت المكتبة تحترق . اليزابيث من رقتها ومفهوميتها لم تنتقد مسلك ابن أختي أمامي . أرادت التخفيف عني ، داعبتني ، بينما كنت أسير في جنازتي . عشت لحظات دفني وأنا جالس إليها ، وكنت قد رأيت شهادة وفاتي معلقة على الباب . ترددت عليها عدة مرات ، قبل رحيلها المفاجئ . أعيش ساعات جنازتي في حضرتها . ومع موتي كنت استرجع ما مضى ، وأتأمل ما بقي . عفق الوتر وتمام النغم . أعدت النظر . رأيت . سمعت . فهمت . قررت فتح الوصية .

لن أجعل حفل فتح الوصية ، مناسبة حزينة . بل هو حفل امتداد الزمان معجونا بإرادة الأجيال لتبادل السلطة والمسئولية .

خيانة الوصية من الكبائر .

لا توجد صورة لجدي الأكبر زوغلى باشا لأعلقها في هذا الحفل . ولكن توجد رسومات كثيرة له ، تظهره شيخا وقورا . كان مقربا من السلطان لعلمه ونزاهته ، ثم وقعت وشاية على طريقة أهل ذلك الزمان ، فحرق السلطان التركي كتبه ، وطارد تلاميذه ، ووضعه في قبو معتم لمدة عشرين عاما ، تغير الولاة وقتل منهم من قتل ، وعزل من عزل ، وظل جدي في القبو ، حتى تذكره الناس ، وأخيرا ، أفرج عنه أحد الولاة الصالحين ، وعينه قاضي

القضاة ، وقربه من دوائر الحكم ، فأصلح ، وعرف جدي بخططه وتعاليمه ووصاياه ، أطلق عليه الباشا لفضله ، وأنعم عليه الوالي بابعاديات كثيرة . وتفرغ للتعليم والدرس .

كان أبي يقول لنا ، إن جدي زوغلي باشا قضي عشرين سنة في القبو ، وكانت حشرات مضيئة تتجمع كل ليلة أمام قبوه فتنيره ، وكان حراسه من الأتراك والجركس يخافون تلك الحشرات ، فيطعمونه ليلا ، ويطلعونه على أخبار الدولة والرعية سرا ، فلم يهلك .

حكاية من دفتر طبائع الحكام في الشرق في العصر الوسيط .

* * *

الفصل السادس والعشرون

مارينا أبو المحاسن المصري

قال ديفيد وهو يضرب المائدة : فكرة سخيفة .

قالها بلسانه وأكدها بضربة يده .

رفع رأسه . ثبت عينيه. اندفع يهاجمني ، قال : . نعم . فكرة الانتحار سخيفة .

رجل كلامه ناعم ، لا يحل ولا يربط ، ماذا يهمه إذا انتحرت أو بقيت . أبي عندما أبلغته بنيتي ضحك ، لماذا يثور ديفيد ؟ هل تهمه حياتي ، لا أظن ، بدأنا المساومة ، قلت : أبتزه .

في البداية وافقته . قلت :

ــ هي فكرة سخيفة ولكن لا مفر .

قال :

ــ انصح بالسفر .

ديفيد يدلي برأي . ماذا جرى في العالم ؟ يتكلم ويقترح شيئا ملموسا. تراجعت بقدر . الانتحار يحتاج إلى شجاعة كبيرة ، شجاعة لا أمتلكها . أنا جبانة . أقفز من شرفة أم أتناول أدوية سامة ؟ كلا .

سألته عن الحل ، قال :

ـ موجود .

ديفيد يمتلك حلا ، قلت :

ـ هات .

قال :

ـ قضية حياة أو موت . الحياة لها ثمن .

بدأنا المساومة .

كان لا يزال ينظر في عيني . قلت :

ـ سوف أسافر .

طلب مني الاتصال بشادرا قبل السفر بيومين على الأقل . قلت :

ـ لا بأس .

قبل سفري ، أغير برواز الصورة . القضية في البرواز وليست في الدماغ كما يزعم أبي . الطب تقدم ، وإصلاح فكي لن يستغرق وقتا . ربما هي ساعة أو أقل . جراحة سهلة وبسيطة . وجه الإنسان برواز .

طموحاتي لن تتغير . أعدل البرواز ليكون جديرا بي ، بدلا من سخرية الناس عندما آكل . أنفي قائم . فمي صغير ، شفتاي ممتلئتان في تناسق . لن يقوى أحد على القول أنني جريت عملية تجميل . هذه ليست جراحة تجميل . جراحة طبية في الفك حتى آكل في يسر مثل بقية البشر . أنا أتلذذ بتناول الطعام . وهذا حقي ، ولن يلومني أحد أو يسخر مني .

جراحات التجميل تعني تكبير الثديين أو شفط دهون الوسط والردفين ، وأنا جسدي متناسق جذاب مثير . أعرف ذلك من نظرات الرجال .

جراحة يقوم بها طبيب أسنان وطبيب عظام ، لا تعتبر عمليـــة تجميـل . شابة فاتنة مثلي ليست في حاجة إلى عملية تجميل ، هذه جراحة مثل جراحـــة المصران الأعور أو اللوزتين .

صورة مائلة على الحائط ، أغير البرواز وأعدلها . هذا كل شيء . كـلا ، هذا لا يكفي ، ديفيد معه حق ، أغير البرواز وأضعه على أرض أسـطورتي ، أســطورتي التي غزلتها منذ مولدي .

أضع البرواز في مكانه الصحيح ، وفي الناحية التي تعجبني، لست متـأكدة تماما من هذا الخيار، لكنها مغامرة . ما الحياة ؟ مغامرات : مغامرات ناجحـة ومغامرات فاشلة . ديفيد وعدني هذه المرة بالمساعدة ، على شـــرط ، قبلـت شرطه . ابن الحرام لا يقدم شيئا دون شروط ، يأخذ قبل أن يعطي ، ويقـــول لي : البنات في الشرق همهن الحب .

أحببت سامح ، لكنني أحب غزل أسطورتي أكثر ، أغزلها من روحــــي . أطرزها بخيوط سحرية ، أصنع عشا في الســماء ، أحلـق ، أبـــي حســاباته أرضية ، يجمع أموالا ويأكل كثيرا ، ثم يشكو من ضيق في صدره . أبي غدده فسدت بسبب كثرة أمواله ، إذا أنفقها تخفف من الدهــون الــذي تكتــم علــى أنفاسه ، لكنه .. علمتني أمي أشياء كثيرة ، لكنني أحب أبي .

أبي رجل عظيم، هرم من أهرامات الجيزة ، أعرف أكاذيب أهل أمــــي ؟ الرعاة لا يشيدون الأهرامات ؟ ضحكت ، هذه أقــاويل ، كـل شــيء يكمــل الأسطورة لا بأس به ، يكمل الصورة ، لن أخالفــــهم ، بنــي قــوم موســى الأهرامات ، نكتة أطلقها بيجين، ولم يصدقها أحد ، لا فـــي الشــرق ولا فـــي الغرب . أنا أيضا لا أصدقها . لكن لا بأس . نكتة ينقصها الخيال .

يندفع الثعبان برأسه وعيناه ثابتتان على الهدف . يفتح فـــاه علـــى آخـــره ويهاجم . ينقض برأسه كله، الثعبان لا يعرف النظرة الجانبية ، وديفيد أيضـــا . ديفيد يدير رأسه نحوي ويثبت عينيه ويحدثني من حلقه . يبتلعني . في البدايـــة يغرس سمه في روحي بكلامه الناعم ، وبعدها .. يا حفيظ .

أكره الثعابين وكل الزواحف لأنها تهاجم من الأمام والخلف ومن فوق ومن تحت . الأسد يهاجم وهو يزأر ، والزواحف تنقض في صمت . قال :

ــ لا اتصالات بيننا في المرحلة القادمة . هذه مرحلة كمون . غيرت العنـــوان والتليفون ..

قبل أن أبدأ كلامي ، قال :

ــ الصفقة فشلت . انتهى الأمر . هذه صفقة أخرى ، لن أتساهل هذه المرة .

حولت رأسي ونظرت في عيني ديفيد . نظرت في عينيه بجانب رأســـي . شعري ينسدل على جبهتي ويغطي عيني . استوعبت الموقف بعين واحـــدة . النظرة الجانبية فيها دلالي . لم أفصح عما في نيتي ، تركت نظرت تحكـــي . فهمني . ابتسم . كان ديفيد راضيا . اتفقنا . حقيقة لا يتكلم ، لكنه شجعني وشد أزري بابتسامته . عيناه الثابتتان تضحكان ، فيهما فرحة طفل ، أعشـــق هـــذه الفرحة. أنا أحب الأطفال .

تخليت عن فكرة الانتحار . طعنت وسوف انتقم .

سألني ديفيد عن الكنز ، وتأمينه ، قلت :

ــ جاهز . تحت يد شادرا .

ابتسم راضيا .

حول الثعبان رأسه عني ، تمدد جسده . استرخى . بعد قليل ينـــام . أيـــام وأحلق بعيدا . استمع إلى نداءات أمي .هذا قدري .أخلص من سامح ، أضـــع

نهاية لحبي ، كلا ، سوف أحبه أكثر ، ماتت أمي فزاد حبي لها . قدري غزل أسطورتي ، أسرق خيوط الليل ، وأبني بيوتا لطموحاتي . عش في الفضاء . كهف في البحر . مزرعة في الصحراء . ووسط هذا الخضم أضع صورتي بعد أن غيرت بروازها . مارينا الجميلة ، أسمها وردة جبل صهيون .

* * *

الفصل السابع و العشرون

الدكتور أحمد أبو الشرف

الظاهر أن المسألة في حاجة إلى وقت ، وكما يقول الدكتـــور بوشـــناق : القضية لها ذيل .

بيت علم وأدب يخيم عليه الحزن بسبب سهام طائشة . أتنسم رائحة القهر . قلعة من قلاع الفكر في هذا البلد تحيط بها اتهامات مشينة. المواطن متهم حتى يثبت براءته . والخالص أن عصر الصورة قد بلغ ذروته . فسد ذوق النـــاس، ولم يعد أحد يفرق بين الحسن والقبيح . ورحم الله المعتزلة.لا أحد يقول: لنـــا وقفة، القصد، تركنا ما جئت من أجله، وشغلنا بالمصـــائب العـــابرة، ونتـــائج التحقيقات. أخيرا تم السماح باستقبال ضيوف المكتبة ، ولكن ..

الأستاذ عابد حزين .

جرت الأيام السابقة فكشرت عن أنيابها . ماذا ينتظرنا ؟ المشـــتغل بالـــهم العام في هذا البلد تشغله قضايا كثيرة . الأستاذ عابد لا تهمه مزاعم احتفاليـــات نهاية القرن ، ففي قاع المدينة ، القصد ، سألني بغتة عـــن أبحـــاث الدكتـــور سامح ، ومجالات تفوقه ، يود معرفة ما يدور حولنـــا ، هـــذه قضايـــا نهايـــة القرن ، شرحت له الأمر وبسطته .

رجل قانون ومحقق لكتب التراث ، التجارب العلميـــة ليســـت مهنتـــه ، بسطت ما غمض ، من حق الكافة معرفة آفاق ما يدور . الأستاذ عابد رجـــل

تشغله قضايا الدنيا والآخرة . وتابعني الرجل بعينين مرهقتين . هـذه ليست قضايا عمره ، لكنه التطلع ونفاذ البصيرة ، قلت :

ـ بعد نشر أبحاث الدكتور السامح في الأعوام الثلاثة الماضية ، تـم تحديد بعض الجينات في معامل متقدمة في الخارج ، مما أكد صحة المعادلات التي توصل إليها ، وهذا محور بحثه الذي أقام الدنيا ولم يقعدها حول إمكانية تخليق فقرات وعظام لها صفات ومزايا العضو الطبيعي وعلى مقاسه ، بـدلا مـن اللجوء إلى مواد غريبة في معالجة الكسور وتلف فقرات العظام . وهـذه لـها سابقة في العلوم النووية ، فمنذ التوصل إلى اتفاق بوقف التفجيرات النووية في الجمعية العامة ، والدول العظمى تجـري تجاربـها النوويـة بوسـاطة الكمبيوتر، دون تفجيرات نووية ، والمفارقة أن السباق النووي لم يتوقـف ، لكنه أصبح نظيفا . لا تلويث للبيئة . وهكذا خرجت الـدول الناميـة الفقـيرة مهزومة في هذه المعركة ، ولم يعد من حقها معرفة الترسانة النووية التي تهدد الكون، والشاهد أنها تزيد بعد انهيار الإتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة .

سألني الأستاذ عابد :

ـ التفجيرات النووية بواسطة الكمبيوتر أم على الكمبيوتر فقط ؟

قلت :

ـ بواسطة الكمبيوتر، وعلى شاشات الكمبيوتر. لا تفجير ولا انتشار للأشـعة، تجارب نووية نظيفة . والدكتور سامح يسعى لوضع البنية البحثيـة لتخليـق العظام والفقرات بواسطة الكمبيوتر. استنساخ عظام بشرية بواسطة الكمبيوتـر. وهذا هو الجديد . قاعدة معلوماتية سليمة ، ومنهج رياضي للتعامل مـع هـذه المعلومات المتوفرة . هذا المنهج لم يكشف عنه بعد . سر المهنـة . ويعلـن الدكتور سامح في المؤتمرات العلمية أن هذا النهج من حـق الفريـق العـامل

معه ، وليس من حقه الانفراد بنشره أو إذاعته. وحقوق نشره تعـود للفريق وللجامعة .

سرح الأستاذ عابد ، يدعك يديه ببعضهما ، ثم يدق على حافة الكرسي دقات هينة ، سألني :

ـ هل الدكتور سامح في خطر ؟ بسبب هذه الأبحاث .

تحاشيت الرد .

عمليات شراء العلماء وسرقة العقول على قدم وساق . عروض من جامعات معروفة وشركات عالمية طلبت إعارته . رفض الدكتور سامح السفر ، بينما رحبت الجامعة ببعض هذه العروض . لم أرد زيادة مخاوفه بعد تلفيق التهم له ، لا يليق ، تحاشيت الرد ، قلت :

ـ الدكتور سامح طول رقبتنا .

سألني الأستاذ عابد في دهشة :

ـ لماذا رحبت الجامعة بذهابه ؟ هذه محاولة للتخلص منه .

ثم أضاف :

ـ أم سياسة الخصخصة بلغت أوجها وكل شيء أصبح قابلا للبيع ، العقول الراجحة مثل أصول الشركات الخاسرة .

قلت :

ـ التعاون مع الجامعات ومراكز الأبحاث الأجنبية له أهمية .

لا أكذب ولا أصرح بكل الحقيقة . أتجمل في القول . تلك أسباب معلنة تقبل الطعن في مصداقيتها، تمسك الدكتور سامح بالبقاء لرعاية والدته وفريقه العامل ، وقبلت الجامعة أعذاره . وانتهت المسألة على خير .

سألني الأستاذ عابد عن الفريق العامل تحت قيادة الدكتور سامح ، قلت :

ـ نخبة من الأساتذة والطلبة من أقسام مختلفة في الجامعات. كل يبحث في

جزئية ، ونتائج البحث تنسب للفريق . هذه تجربة قام بها الدكتور أحمد زويل في الجامعات الأمريكية ، وحققت نجاحا منقطع النظير في عالم الفيزياء .

نظر إلى الأستاذ عابد في دهشة ، قال :

ــ أفدتنا أفادكم الله .

يستمع الرجل إلى غير مصدق ، وكنت في السابق أظنه يعرف شيئا عن أبحاثه وعاداته . لكن القصد . سامح عالم قليل الكلام ، يكتفي بالنشر في المجلات العلمية . رجل له طقوس . قسم وقته بدقة بين الجامعة والعيادة ومركز أبحاث صغير ، ساعات صمته أكثر من ساعات كلامه ، عيبه الوحيد ، المغامرات ، وحب المقامرة ، وهذه على فترات متباعدة . حميته من نفسه طالبا ومعيدا ، ولما برز نبوغه تركته على هواه ، رجل متعه في الحياة قليلة ، وصاحب مزاج حاد ، ويرى في نزواته المتقطعة وسيلة لشحذ قواه العقلية . القصد .. لم أقف في طريقه .

ليس من حق أحد التدخل في حياة الدكتور سامح الشخصية ، حميته من عداوة الصغار وحقد غير الموهوبين . وتركته لنفسه ..

زاد صمت الأستاذ عابد . علامات حزن على وجهه وكنت أظنه يفرح بسماع نجاحات ابن اخته ، غابت بسمته . يجلس وكأنه مرهق . لا أعرف ما يدور في رأسه من ناحية الدكتور سامح ، لكنني توقعت خيرا .

هذا رجل لا يفكر إلا في الخير .

تركت الأستاذ عابد وانشغلت مع الدكتور بوشناق في حديث حول أدبيات الخوارج ، وسبقهم للمعتزلة من ناحية تكفير الناس وإن اختلفت الدوافع ، وذلك قبل محنة المعتزلة في مسألة خلق القرآن الكريم ، والأزل والخلاف حول صفات الله سبحانه وتعالى . وهو ما يصفه الأستاذ عابد بقوله : " الميل

إلى تكفير الناس في تراث الغلاة في الدين ، كسمة من سمات العصر الوسيط في الشرق والغرب . "

نتناول قضاياه ولا يشاركنا الحديث .

الميل إلى الصمت متأصل في عائلة زوغلى باشا ، ابتسمت . بعد فترة ، قال :

ـ يزورني الدكتور سامح لمتابعة صحتي، ويبخل على بذكر إنجازاته ، يظن أنني غارق في كتب صفراء ، لا نفع منها ولا ضرار ، همومي صيحات تراثية مضى زمانها ، بينما .. جيل تفصله عن معمر مثلي قرون .

أكمل الأستاذ عابد كلامه ، قال :

ـ تشغلنا قضايا التنوير ، ودراسة أسباب الميل للتكفير في حالة النزاع على السلطة ، لا فرق بين الخوارج في مطالبتهم بالحكم والمعتزلة في رفعتهم للعقل وقد دانت لهم دولة الخليفة المأمون . عصر الخليفة المأمون لم يكشف عنه بعد . تشغلني قضايا التنوير وأسباب التكفير ، وسامح تشغله عني معادلات جبرية . معادلات لا قدرة لدي على قراءتها . معادلات بعيدة عنا ، ولكن .. انعزاله عني يضايقني ، حضوره كغيابه . لا تواصل بيننا .

رأيت التخفيف من ضيق الأستاذ عابد من تصرفات الدكتور سامح ، قلت :

ـ منظومة الفكر أكبر من التجارب المعملية .

قال :

ـ هي كذلك . نحن نعبد لهم الطرق . نمنع عنهم تهمة التكفير ، ولكنهم لا يفهمون .

الأسى في حوارنا .

مجموعة شيوخ يبحثون عن تواصل مع أجيال جديدة . قرن جديد قضاياه شائكة وغائبة عنهم ، نقل الدكتور بوشناق الحديث إلى غراميات الدكتور سامح ، قال مازحا :

ــ لا خير في عالم فحل يقع في غرام واحدة مثل مارينا .

ضحكنا .

قلت موضحا :

ــ غراميات الدكتور سامح نزوات عابرة . رجل قلبه مغلق على العلم ، المضاربة في البورصة واحدة من نزواته ، وهو يكسب على طول الخط . هذا تلميذي وخبرته في شبابه ، وتابعته في سفرته العلمية .

أغضب كلامي الأستاذ عابد . قال :

ــ من لا يعرف الحب لا خير فيه ، هذه خبرة البشرية . العباقرة بينهم قتلة وسفاحون .

قام إلى خزانته فتحها ، وتناول ملفا ، قال :

ــ هذه رسومات سامح في طفولته وصباه بالقلم الرصاص والألوان .عبقري أم مجرم ؟

تأملت الرسومات . وجدتها جميلة وأعجبتني . رسومات ليست ساذجة ، تقترب من الفن البدائي وتبتعد عن رسومات الأطفال . مشكلة المنظور فيها واضحة ، ولكنها مغلفة بسريالية مفرداتها خيالية .

قلت :

ــ الدكتور سامح فنان . ليته يشرف على الجماعات الفنية في الجامعة ؟

قال الأستاذ عابد :

ــ الدكتور سامح تشغله تجاربه عن عواطفه . الفن عماده المحاورة بين الداخل والخارج . الدكتور سامح فقد المصفاة .

قال الأستاذ عابد ذلك كله في جمل سريعة متلاحقة فيها قسوة ، استمعت له ولم أعلق . أمامنا عمل كثير الليلة . قراءة مقدمات كتبتها وإضافة هوامش . رفض الأستاذ عابد مشاركتنا العمل ، لا حماس لديه ، مشاغله تأخذه منا ، قال :

ـ هذه مهمتكما . أنا أديت رسالتي .

قال الدكتور بوشناق الطهطاوي :

ـ كيف ؟ لا مراجعة ولا طباعة ولا نشر ، قبل مراجعة المقدمات ، هذه مسئولية جماعية .

قال الأستاذ عابد حزينا وقلقا :

ـ عندما تنشر الموسوعة ربما أكون سجينا في طره ، وهناك لن يلومني أحد إذا أخطأنا في نسبة قول واحد من الخوارج مثل نافع ابن الأزرق إلى واحد من المعتزلة مثل واصل بن عطاء .

ضحكنا . قلت :

ـ التاريخ لن يتسامح .

قال :

ـ أمضيت عمري مثل الوراقين . أعايش التاريخ وعيناي على القادم من الأيام ، ثم هزمني حاضري .

قلبه مكسور . معه حق . المسألة انتهت ولكن ذيولها باقية . واحدة من عمليات النصب الشائعة هذه الأيام . اتهامات لا قوام لها من الظاهر ، وباطنها لم يكشف عنه . وقف كثيرون إلى جانب الأستاذ عابد ، لكن وجود مارينا أبو المحاسن المصري وراء هذه العملية يثير المخاوف ، هذه القضية ضحيتها ليس الأستاذ عابد ، بل أرى المقصود بها أبحاث الدكتور سامح ، كيف ؟

لا أعرف ، لا دليل عندي ولا قرينة ، لكنها شكوكي . في كل يوم تزيد مخاوفي . سكت ..

زادت عمليات النصب لتصبح صناعة ، لا فرق بين لصوص الحمير في الريف وبين بعض رجال العولمة. في الريف يسرق فقراء الناس الحمير، وعلى الساحة العالمية يسرق الأقوياء العقول ، والبعض الآخرمهمته غسل المليارات في البنوك . سألت الدكتور بوشناق الطهطاوي عن حرامية الحمير في الريف هذه الأيام ، ضحك ، قال :

ـ الآن سرقة السيارات والجرارات وأعمدة النور أكثر من سرقة الحمير والمواشي، العالم تغير . عولمة .

ضحكنا .

قال الأستاذ عابد فجأة :

ـ كنت أود محادثة الدكتور سامح عن عائلة برسوم المجبر . تلك العائلة أسست طب العظام في مصر . جمعت مقتطفات عن نوادرهم من المجلات القديمة . يقلقني عدم معرفة الدكتور سامح بتاريخ طب العظام في مصر . الظاهر أنه مشغول بإنجازات قادم الأيام ولن يقرأ شيئا منها .

عائلة برسوم المجبر ، وقصة علاجه للزعيم سعد زغلول ، ابتسمت . قلت :

ـ هذا جيل يرمح في فضاء واسع . قدماه في البعيد وليس في الماضي .

قال :

ـ معك حق ، ولكن ...

لم يكمل قوله ، ولم أثقل عليه ، كان مرهقا .

* * *

الفصل الثامن والعشرون

عابد عبد المتجلي زوغلي

انتهى ليل وبزغ فجر .

دارت الأيام دورتها وقاربنا النهاية . عدلت وصيتي . كتبت ممتلكاتي للدكتور سامح لمتابعة أبحاثه ، طموحاته العلمية يحققها في صبر، وفى تقية . وجب دعم هذا الولد ، ربما هو أول عالم في العلوم الطبيعية في عائلتنا ، بعد أن أخرجت عائلة زوغلى باشا كثيرين من الفقهاء ورجال الدين وعلوم اللغة في السابق ، سامح عالم في الطب ، ومخترع ترميم العظام .

راعيت حقوق نفوسة والطباخ والشغالة علي ، تركت لكل منهم شقة صغيرة في عمارة قديمة في شبرا ، ومبلغا من المال ليس بالكبير ولكنه يكفيهم من العوز والحاجة ، كلا ، مبلغ يحقق لهم العيش في بحبوحة وسعة . أما أوقاف المكتبة ، فتركتها على حالها وزدت عليها من مالي .

فتح الدكتور أحمد أبو الشرف أمامي بابا سحريا ، رأيت العجب . أفادنا علما أفاده الله .

هذه وصيتي .

أترك للدكتور سامح التصرف في هذه التركة لوضع أساس مؤسسة علمية للعظام ، لا أضع شروطا ، ولا ألزمه بمطالب شرعية ، هي للعلم ، وهو رجل أمين . نواة مركز أبحاث . مؤسسة زوغلي باشا لتخليق العظام

وترميمها . ضحكت . استنساخ يا جدي الكبير . استنساخ عظـــام وفقــرات للعلاج . هل أوصيه بمراعاة الشرع والقانون ؟ أقول له ، لا استنساخ للبشــر بأموال عابد عبد المتجلي زوغلي . ابتسمت . هذا من نافلة القول . في الغـروب بدأت التجارب بالنعجة دُولي ، وفي القاهرة المحروسة يبدأ الدكتـــور سـامح الدهشوري تجاربه باستنساخ فقرات عظام الثعابين والحيات . جـدي زوغلـي باشا رصد أمواله لمكتبة ترعى صحيح الدين وكتابات فقهاء وفلاسفة المسـلمين وأقوال الحكماء، ويقال إنه كان ضليعا في الفقه وعلم الكلام ، وأنا عابد عبــد المتجلى زوغلى أرصد أموالي في سبيل تخليق فقرات عظـام الحيـات أولا ، وعظام والقردة فيما بعد ، لعل وعسى .

العاقل من يرصد تراكمات الزمان . معذرة يا جدي .علاج الناس أهـــم . والضرورات .. كتبت وصيتي برضا كامل وراحة ضمــير ، لا تشـكك ولا تخوين ولا تكفير . عيب . هذا فتى ربيته على الصلاح .

كنت سعيدا .

لم تجزع يدي ولم يضق صدري ، وأنا أكتب الوصية . لست خائفـا مــن الموت . الحكيم من يعلم ويعمل ، رحم الله الخوارج ، كل منا يعمــل ويسـلم رايته في النهاية . المهم الخلف الصالح . من حسن طالعي أنني عرفــت بمـا كنت أجهله قبل فوات الفرصة ، وفي لحظة اقتربت فيها ساعة الرحيل .

أرحل مستريح البال قرير العين . ابني ورمي رميته في أرض لا معرفــة لي بها ، ابتعد ، وظل الود علي حاله . أموالي لا تحسب بالمليارات بل هــي بالملايين فقط ، وهذه ربما تكفي لوضع نواة ، لترجمة أقوال شــهرزاد فاتنــة الزمان إلى برامج وخطط . البنورة المسحورة ، القمقم ، خاتم سليمان . سحر أسود . صندوق الدنيا . تخليق فقراتــ وتخليق عظام على المقاس ، من يفقــد ساقه ، يصنع له ساق على مقاسه .

في البداية ثعابين وحيات ، ومع كر السنين تصنيع قطع غيـــار النـــاس . مؤسسة شهرزاد لقطع الغيار . بدلا من سرقة وشراء كلى الفقـــراء . يطلـــق عليها سامح اسم والدته دنيا زاد إذا أراد أيضا ، لا مانع عندي . " مؤسسة دنيا زاد لقطع الغيار . " اسم يليق بهذه المؤسسة . اسم به شـــيء مـــن الـــتراث والخيال .

ضحكت .

الولد لم يكن طامعا في المكتبة بسبب شهوة التملك ، أو لغرض في نفسه ، بل يسير على درب والده المرحوم الدهشوري بك ، من الغلاة فـــي الديـــن ، ويرى أن الوصية انتهكت ، ويود الصلاح . لا قضايا ولا نزاع في المحـــاكم . قال والده : إما وإما . وصبر خمسة عشر عاما كاملة لم يفتح فمه فيها بكلمة ، بعدها طالب بتنفيذ الوصية على الوجه الأكمل . رحمه الله . ربما المكتبة حقيقة من حق دنيا زاد . على كل حال أنا لم أغتصب المكتبة ، بل رعيت أمورهـــا وأشرفت عليها ، وكرست حياتي لها .

كلنا عابر طريق ، عملت بالمكتبة كما عمل بها السلف الصالح ، تاركـــها وقد قربت ساعتي ، لن أورثها لذكر أو بنت من صلبي . حافظت على الأمانـــة وزدتها . جاءت اللحظة التي يعرف فيها الدكتور سامح كم كان والده مخطئـــا في تصوراته .

كل ما أمتلكه تحت تصرفه ، وأظنه لن يقامر بأوقاف الأحبـــة أو يراهـــن عليها في البورصات . هذا ولد شاغله العلم . وسوف يشرفنا ، ويطول رقبتنـــا كما قال الدكتور أحمد أبو الشرف .

قلت لبوشناق : أرحت ضميري ، وصيتي جاهزة . والأهم أنني سوف أبدأ في تنفيذها في حياتي . أسجل ممتلكاتي في حياتي بعقـــود رســـمية لســـامح . أتنازل عنها برضاي وكامل إرادتي .

قال بوشناق :

ــ هذه وقتها بعيد يا سيدي .

مجاملة لطيفة من صديق يتمني لي طول العمر ، شكرته ، ناموس الحياة على رقابنا كالسيف . الموت حق . وأحسن صنعا من رتب بيته وفقا للشرع والأصول ، والرحمة قبل العدل . قلت : لا أحد ينتظر مني شيئا ، راعيت أخواتي البنات وأولادهن وبناتهن وأحفادهن . الرحمة قبل العدل . وقد عدل جدي وأبي وأنا أسير على دربهما . وللعلم حق في دنيانا الفانية .

قال بوشناق :

ــ لك طول العمر يا سيدي .

صمت .

مبني متوسط قابل للزيادة . عليه يافطة مشعة : مؤسسة زوغلي باشا للأبحاث . فرح قلبي . ختامها مسك . موسوعة التنوير الإسلامية انتهت صفحاتها . صالحة للطبع . شعارها لا تكفير، وعمادها الديموقراطية ، ومراعاة حقوق الإنسان ، وحق الشعب في تبادل السلطة . قلت لنفسي : أحسنت يا عابد . جاهدت الجهاد الحسن .

نسيت بقية القول ، سألت الأستاذ بوشناق ، قال : هذا قول بولس الرسول ، وأظن تتمته : واستحققت إكليل الغار . ربما . نسيت أنا الآخر . كبرنا يا سيدي .

استرحت لقوله كبرنا .

لن يلومني أحد بسبب وصيتي ، ربما تبدو في أعين بعض الأصدقاء من المتزمتين غريبة في بابها ويتهمونني بالكفر . محقق تراث يدعم تخليق العظلم والاستنساخ . لكنني متفائل ، الدكتور سامح ، طول رقبتنا ، وهذا ليس قولي

بل شهادة العلامة الدكتور أحمد أبو الشرف عميد علماء البيولوجيا والهندسة الوراثية في الشرق الأوسط ، وصاحب شهرة العالمية في تخصصه .

قلت لبوشناق :

ــ إذا جرى لي مكروه ، الوصية مسئوليتك .

قال :

ــ سمعا وطاعة يا عبد المتجلي بك .

أعجبني قوله ، ابتسمت ، تناولت طربوشا كان على مقربة مني ، ووضعته على رأسي .

قال :

ــ لا تنس الوردة الحمراء في جيب السترة . لم تخيب نفوسة ظنه ، أسرعت وناولتني واحدة .

بعدها قالت نفوسة في شجن :

ــ اللهم اجعله خيرا ، واكمل فرحتنا .

* * *

الفصل التاسع والعشرون

الدكتور سامح الدهشوري

لن يخفف عن خالي سوى مقابلة اليزابيث . قالت إنها هربت من شارع القصر العيني ولم تهرب منه ، ورحبت بوداعه لها . كذبت وندمت . لن أحرمه من هذه المتعة الصغيرة ، تقول له شيئا طيبا ، لم تطلب مني ترتيب مقابلة معه قبل السفر . وقالت : نتقابل في المطار . هذا يفرحها . قالت : أذهب قبل الموعد بساعتين . نجلس في الكافتيريا . قالت : هربت من شارع القصر العيني بسبب الضجة . تعبت . هذه البنت لا تتقن فنون الكذب ولما كذبت كشفها صدقها . لا بأس ، هذا حقها ، تعبت من ضجة الطريق ، ومن زيارات خالي لها ، بدلت مسكنها ، لحقت بزميلتها، كانت مشغولة وفي حاجة إلى راحة . معها حق . أتفهم دوافعها تماما . كان في مقدورها طرده من شقتها ، ولكنها تعزه وتجله ، ومشكلتها في قلة الوقت . لم أكن أعرف أن خالي معروفا بأبحاثه بين المستشرقين ، وكتاباته ينظر لها بتقدير كبير . قالت أنها أرسلت إلى أستاذها بأنها تعرفت على الأستاذ عابد عبد المتجلي زوغلي ، فطلب منها العمل معه علي مراجعة عدة قضايا ، أشارت لها في حديثها ، لكنني نسيتها . تذكرت ، قضايا تتعلق بالتنوير ، ومحنة التكفير التي هدت الدولة الإسلامية من الخوارج في عهد علي حتى المعتزلة في عهد الخليفة المأمون .

كررت أن الأستاذ عابد رجل فاضل ، وهي تحبه وتقدره ، ولا تقدر على السفر دون وداعه ، ولكنها خجلة . قلت لها : خالي يستيقظ مبكرا ، والحضور إلى المطار بالسيارة لن يضايقه . ووعدتها بترتيب الأمر . ابتسمت . قالت : أشكرك . هذه خدمة لخالي ، قلت : خالي يسعده لقاؤها قبل سفرها .

في المساء ، سألت عن خالي ، هذا وقت عمله في المكتبة ، قالت نفوسة ، خرج . أبلغتها الرسالة وحددت لها الموعد ، وطلبت منها التنبيه على سائق السيارة بالحضور مبكرا غدا في السادسة صباحا . الموعد في الكافيتريا المطار الساعة السابعة . طلبت منها كتابة الموعد والمكان والغرض، فعلت . بعدها ، سألتني نفوسة عن عنواني الإليكتروني ، ابتسمت . قلت : أرسله لها بالفاكس اليوم . كتابته على التليفون صعبة ، وافقتني .

طلبت نفوسة السماح لها بالحضور إلى المطار لوداع الست المستشرقة ، وقراءة قصيدة عليها من عيون الشعر العربي الفصيح . رحبت بها ، إذا أحسنت نفوسة قرأت قصيدة الأطلال من شعر الدكتور إبراهيم ناجي وغناء السيدة أم كلثوم ، بدلا من قصائد الشعر الجاهلي التي تحفظها كالببغاء ، ولا تعرف معانيها .

غريبة هذه البنت ، ماذا فعلت نفوسة في يومها ؟ ما لها والبريد الإليكتروني ؟ هل تعلمت شيئا جديدا ؟ لا بد أنها دارت في شوارع جاردن سيتي والقصر العيني ، تسأل وتتقصى ، هذه المرأة في قلبها رغبة في التعلم ، خسارة . اكتفت بحفظ الشعر. تراجع الفهارس وتضيف أسماء الكتب الجديدة ، خطها جميل ، ذاكرتها قوية ، ربما فهمها قليل بسبب عزلتها ، تستقبل عشرات من الناس في اليوم ، ولا أحد يحادثها ولا أحد يهتم بها .

خالي أحسن صنعا بالحفاظ على نفوسة ، هي عماد المكتبة .

نتقابل غدا في كافيتريا المطار .

حمادة الجرسون تشغله كاتيا عنا ، عارضة أزياء فاتنة ، شابة صغيرة تقارب اليزابيث عمرا وربما تقل عنها . في جسدها وتركيب عظامها كمال الأنثى .. ولكن ربما دماغها فارغ ، حمادة أيضا من أبطال السباحة وكمال الأجسام ، لكنه لم يتفرغ لهذه المهنة ، شغلته الفندقة ولقمة العيش عن الرياضة . حمادة الجرسون في حاجة إلى قلب حنون ، وتبدو عليها طيبة ، لكن عارضات الأزياء قليلا ما يقعن في الحب ، في نفوسهن شهوة الظهور وحب المال والشهرة ، إذا نجحت كاتيا في عملها ، وحققت الشهرة ، لن ترضى بهذا الشاب ؟ كاتيا بريطانية وفي حاجة إلى نجم سينمائي من فتيان السينما الأمريكية ، وليس إلى جرسون في فندق في القاهرة ؟ هذه مقاصة غير محسوبة يا حمادة ؟ ربما هي نزوة . نزوة تشبه تعلق خالي باليزابيث وهو الرجل الذي شارف على الثمانين . من نعم الله على البشر أن الحياة تسري في عروقهم حتى الرمق الأخير ، وأمامي السيدة جفت هانم النقلي كمثال ، لا تزال تحلم بقدوم أمير سابق . نعم . وهذه من نعم الله . خالي ليس في حاجة إلى قياس ضغطه بعد مقابلة اليزابيث . ضحكت .

•

كاتيا من عينة مارينا ، ربما تختلف عنها في بعض الجوانب ، لكنهما من طينة واحدة ، غرور وحب الظهور ، وشهوة التملك من أجل التملك . ربما عارضة الأزياء التي تصادق فتاة في رقة وعلم اليزابيث لا بد أن تكون من طينة أخري وفي عقلها قضايا تشغلها ، قد تكون من المشتغلين بالدفاع عن البيئة أو حقوق الإنسان ، هذه هي الموضة التي تشغل البنات في العالم الغربي هذه الأيام . لم أتعرف عليها ، خجلة تخشى الحديث وتخشى السباحة أيضا ، تقف بلباس البحر ، ولا تنزل المياه . تخاف ، وخطيبها من أبطال السباحة

الطويلة سابقا . لله في خلقه شئون . خالي لم ير كاتيا ، ربما حدثته اليزابيث عنها . لو رآها خالي لكتب فيها قصائد شعر .

غدا نتقابل .

في كافيتريا المطار أترك خالي مع اليزابيث ، وأصحب نفوسة معي لشراء هدية . أشغلها عنهما . هدية تقدمها نفوسة لها باسم المكتبة . باسم عائلة زوغلى باشا . ضحكت . شغلتني الفتاة عن مارينا .

خالي معه حق إذا اتهمني بسرقة الفتاة منه . قابلتها من ورائه أكثر من خمس مرات ، في لقاءات سريعة في النادي ، وتناولنا الغداء مرتين معا بمفردنا . وهذه لن يغفرها خالي لي . سرقتها منه . أطارده بسبب المكتبة وأسرق منه اليزابيث ، ضحكت .

كان يجب أن أصارحه بأن اليزابيث انتقلت إلى الزمالك ، وأنها تذهب إلى النادي كل يوم مع كاتيا ، وتعرفت عليها هناك عن طريق حمادة ، زبوني في العيادة ، لكنني سكت . هذه فيها حق عرب يا خالي . معه حق . ابتعدت عن الأصول . إذا أراد خالي أن أصحبه إلى المطار غدا ، ذهبت إليه ، لكنه سوف يأتي مع السائق .

نفوسة لن تضيع هذه الفرصة ، رجلها على رجله ، حتى إذا أغلقت المكتبة .

* * *

الفصل الثلاثون

بوشناق الطهطاوي

تعطلت مصالحنا وتوقفت أعمالنا في العزبة ، بينما أوراق المكتبة تدور من مكتب إلى مكتب ، ولا نهاية قريبة للتأشيرات والأختام . انتهينا من سقوط الاتهامات وتبقى استكمال الأختام التي لا حصر لها ولا عد . حقيقة المكتبة شغالة ، ولكن الأستاذ عابد لا يستقبل روادها من الباحثين بنفسه ، ترك شؤون المكتبة لنفوسة والشغالة . فقد حميته ، وقل عدد المترددين . يفكر الأستاذ عابد في تعيين موظف مكتبات لمعاونة الباحثين والرد على الخطابات . صدت نفسه عن العمل والقراءة ، ونفوسة حزينة لغياب الضيوف وخائفة من الوحدة ، أوهامها تزيد ومخاوفها جبال .

قلت :

ـ أسافر ثلاثة أيام ، وبعدها نرتب حفل فتح الوصية .

قال :

ـ كما تشاء يا بوشناق .

قالها غير راض ، استسلمت . يكثر من الخروج ، وهذا حسن ، لكنه توقف عن متابعة الصحف . قال : هل تظن أن رؤية صورتي في أبواب الحوادث يسعد قلبي ؟ ضحكت . الأستاذ عابد عبد المتجلي لا يذكر اسمه إلا مسبوقا بكلمة دكتور أو أستاذ . أبحاثه تجد ترحيبا من الثقاة من المفكرين .

ربما صغار رجال الإعلام يجهلونه عن غير قصد ، ولكن النخبة تعرفه ، وتقدر دوره ، ولا توجد صحيفة تجرؤ على الإساءة إليه ، مهما سعت نفوس شريرة . أغلقت المكتبة بكلمة وليس بالشمع الأحمر ، وذهب إلى النيابة مرتين أو ثلاثة ، وبعدها ، تابعت المسألة نيابة عنه ، لا أحد يقدر على الإساءة إليه .

سألته متي يخرج إلى صيد السمك مع الدكتور سامح ، ضحك .

قال :

ـ أود إبراء ذمتي من المكتبة قبل رحيلي يا بوشناق . ممتلكاتي الأخرى رصدتها للدكتور سامح ، أخصص شيئا لنفوسة والشغالة والطباخ . أود ترتيب أمور المكتبة كما فعل جدي وأبي من قبل ، هذه ليست تركة شخصية ، هذا تراث عدة أجيال ، ومن حسن حظي ، معظم الورثة يشاركونني الرأي في ضرورة الحفاظ علي المكتبة ، لا بيع ولا تنازل . وأكثرهم حماسا للمكتبة عزيزة ، فيها فطنة ، شابة تدرس العلوم وتقرأ الأدب وتهتم بقضايا التراث .

قال الأستاذ عابد مؤكدا :

ـ هذه طوبة في حائط الزمان ، والزمان يسير إلى أمام . تأكلنا الأيام ويبقي على وجه الأرض بشر . الكلمة المكتوبة يا بوشناق لا تضيع . الكلمة سرمدية . معانيها تتبدل بتبدل الأيام والناس ، ولكنها باقية ، ما قدر لها البقاء .

حرق الكتب آفة عصور بالية ، نجانا الله منها . آفة العصر الحديث تجاهل الكلمة المكتوبة لصالح الصورة ، وليس منع نشرها. القصد . الصورة أصبحت أشد خطرا على الكلمة المكتوبة من المنع .

حديث الدكتور أحمد أبو الشرف أسعده قليلا، كانت جلسة ودية على العشاء ، تبادلنا فيها الهموم ، وحدثنا الدكتور أحمد أبو الشرف عن عجائب الجامعة ومراكز الأبحاث في نهاية هذا القرن .

قبل العشاء رفض الأستاذ عابد مشاركتنا القراءة ، تفهم الدكتور أبو شرف الموقف ، قال :

ــ لنا جلسة أخري قبل يوم الثلاثاء القادم .

يرفض الأستاذ عابد مشاركتنا العمل . مشغول بترتيب أمـــور المكتبـــة . يسير خطوات على طريق القادم من الأيام ، وأعرف شاغله ، وتوقعـــــت مـــا ينتظرني . أؤجل السفر للمرة الثالثة . قلت : ما يصنع يصنع للخير يا ولـــد العم .

* * *

الفصل الواحد والثلاثون

نفوسة بنت النخيلي

سمعت صرخة في المنام . حلم . العياذ بالله . شربت جرعة ماء . توددت إلى الله ، طلبت المغفرة والرحمة . توضأت وصليت الفجر . كنت حزينة وخائفة . الأحلام الشريرة من الشيطان . فتحت نافذة الغرفة ، هبت رياح قوية باردة من الناحية الغربية ، طيرت شعري وعطست . أغلقتها . أحلام قبل الفجر تقبض الروح . هذه ساعة نحس وحلت . دمه سائح ، يناديني . العياذ بالله من الشيطان الرجيم ، قمت . صراخه في رأسي من جوه وليس من بره . أسمعه مع خطوات سيري ، ومع تدفق المياه في الصنبور . جلست ؟ قتل الناس في المنام فأل سيئ . هذا الحلم نذير شؤم يا نفوسة . رؤية وبانت . اللهم احفظنا . خفت على الست دنيا زاد . ست أميرة بحق . كلها ساعة ويستيقظ الأستاذ بوشناق أولا ومن بعده الأستاذ عابد .

الأستاذ عابد مشغول اليوم . يذهب إلى المطار لوداع البنت المستشرقة . باحثة . تسافر إلى لندن ، وتأتي إلينا في العام القادم لترتب المكتبة وتدخل البريد الكهربائي . بدعة من بدع الزمان . شبكة تلغراف منزلي . كل واحد يدق عليها . توصل التلغراف في لحظة مثل التليفونات . صندوق الزمان يا نفوسة . عشنا وشفنا . الأستاذ بوشناق يفهم في هذه الأمور ، ويقول لي ، هذه مخترعات من ألف ليلة وليلة ، وأنا قرأت ألف ليلة وليلة ، ولم أجد فيها سوي

الجني الذي يخرج من القمقم ، وخاتم سيدنا سليمان اللذين يحققان العجـــائب . الأستاذ بوشناق يقول : البنورة الســـحرية هـــي شـــبكة التلغــراف والـــبريد الكهربائي .

الدكتور سامح طول النهار والليل يرسل إشارات ويستقبل إشارات كعـــامل التلغراف . عامل التلغراف يدق على ماكينة حديد والدكتور سامح يدق علـــى الكمبيوتر . يا نفوسة الكمبيوتر للكتابة . كيف ؟ لا أعرف . في مكتب النســخ خلف عمارتنا في جاردن سيتي ، كمبيوترات كبيرة ، اسلم أوراق الأستاذ عابد بخط اليد ، واستلمها مكتوبة على ورق أبيض ، خطها جميل : نسخ ورقعـــة ، مثل الجر نال المطبوع .

دقات شواكيش في رأسي من الخلف . الضغط يا نفوسة ، قلـــت للدكتـــور سامح : ابعد عنا يا وش الغراب ، غضب ورفض قياس ضغطي . معه حـــق . الأستاذ عابد من ذوقه ورحمته سامحني في وقتها ، وبعدها قال : اللفظ سعد يـا نفوسة . عيب . هذا ابن الست دنيا زاد . حبيبة قلبي .

بكيت وطلبت منه السماح . ومن ساعتها والصداع وخبط الشواكيش فـــي رأسي .

بعد خروج الأستاذ عابد أخطف رجلي إلى مكتب النسخ ، وأسأل هناك عن البريد الكهربائي ، استفسر وأفهم ، سؤال واحد على لساني : ما هـــي شـــبكة التلغراف الكهربائي ، وكيف ترسل الخطابات ؟ إذا فهمت هـــذا الســؤال ، أرسل خطابا كهربائيا للدكتور سامح ، أكتب فيه أربع كلمات : أنا آســـفة يـــا دكتور . نفوسة . وإذا كانت الأمور صعبة الفهم كما يقـــول الأســـتاذ عـــابد ، انسحبت . أقول : هذا ليس زماننا . أنا حتى هذه اللحظة لا أفهم كيف يعمـــل التليفزيون . صوت وصورة يا حفيظ . مرة تحدث الأستاذ عابد في التلفزيون .

رأيته كأنه يجلس معنا . كان هناك . ورأيته معنا في الغرفـــة . هـو هنـاك وصورته هنا . حكم .

هذه فلسفة عميقة يا نفوسة . كتبها أصعب من كتـب الشـعر الجـاهلي ، وكتب النحو والصرف . هل ما رأيته في المنام هذا الصباح ، حقيقة ، الشـر بعيد ، الحادثة هناك وصورتها في رأسي ، صوت وصورة ، أنا تلفزيون ؟

لا تلفزيون ولا تليفون ولا حتى حنفية .

الطباخ يقول إن الإنسان يحلم ويري الكوابيس عندما لا يشد اللحاف علـى بطنه . طول عمره خائب . لا يفهم في الطبخ ولا في الكلام . الرجل الـذي لا يذهب إلى السينما خائب . وطباخ الغبراء لا يحب السينما ولا التلفزيـون ولا قراءة الصحف ، ولا سماع الراديو ، لما مات الزعيم جمال عبـد النـاصر ، تصور إن الجنازة وهي تعبر الكوبري أمامنا ، جنازة الملك فـاروق . لعنتـه ولعنت أهل عزبته التي أخرجت لنا واحدا مثله ، عقلة جزمه ، وفهمـه فـهم عصفورة ، لهذا لا يحب أكل العصافير .

وداع الأستاذ عابد للبنت المستشرقة الحلوة ، ربما يسعد قلبه ، وربما أيضا يضايقه ، الوداع فيه وحشة ، غصة ، اذهب معـه . أؤجـل حكايـة الـبريد الكهربائي وأذهب إلى المطار ، فرصة ، لن يرفض طلبي . المكتبة مغلقـة ، وهذه إجازة .

* * *

الفصل الثاني والثلاثون

الدكتور سامح الدهشوري

كالعادة ، استيقظت في الخامسة صباحا ، وقبل سماع جرس المنبه . قمت نشطا . مارست رياضتي الخفيفة لمدة نصف ساعة ، أخذت حماما ساخنا في البداية ، ثم وقفت تحت المياه الباردة . عادة تعلمتها في الجيش ، الاستحمام بالماء البارد في الصباح ينعشني طوال يومي . في الجيش يتعذر وجود المياه الساخنة في الصحراء . وفي معظم الأوقات كنا نعاني من شح المياه ووجود قطرات من المياه الباردة ترف ما بعده ترف . ضحكت . الحماس وسخونة المعارك ليسا في حاجة إلى مياه ساخنة ، كل شيء ساخن في المعارك ، من الهواء إلى التراب .

كلما وقفت تحت الدش البارد تذكرت أيامي بالجيش متطوعا .. كانت أياما صعبة ، ولذيذة أيضا . ابن وحيد في العائلة ، فاتني التجنيد ، تطوعت . قالت أمي . الدهشوري بك مرض بسبب هزيمة ٦٧ وبعدها مات . تطوعت ، ولم تمانع . تطوعت في القوات الخاصة بعد تخرجي من الطب مباشرة ، طبيب مجند وليس ضابطا .

المقاتل سامح الدهشوري ، جندي صاعقة . انتباه . تمام . هه .

مارست القتال والطب في الصحراء ، إصابات بعد كل عملية انتحارية ، بعضها طفيف وبعضها معقد . الحياة تولد من الموت . جربت وسائل غير

مطروقة ، عرفت النصر والفشل . أدركت قسوة الإحساس بالعجز . يموت فرد بسبب غياب جرعة ماء ، يموت وحريق في فمه . تنقص المياه ، والأدوية . وفي بعض المرات تخيب حساباتنا . رهبة المفاجآت غير المحسوبة تؤدي إلى الموت أو التحدي . لا تعرف المنزلة بين المنزلتين . هي ساعة موت أو ساعة تحدي . ومعذرة للنفرى .

الموت قائم على رؤوسنا . موت يختلف عن الموت الذي نراه في البيوت أو المستشفيات ، موت جسدي ، أما الإرادة فتظل حية ، إذا عجز اللسان نطقت ملامح الوجه . الإرادة هي الطاقة المشعة بالفرحة التي تلمس باليد وترى بالعين وتسمع بالأذن .

سجن جدي الكبير زوغلى باشا في قبو مظلم عشرين عاما وخرج قويا . مكتبة زوغلى باشا عمرها ستمائة عام . كل شيء يسير إلى خلود في مصو . وكنت شابا ولست خائفا . حاربت في الخطوط الأمامية وتسللت خلف خطوط العدو . عرفت نشوة الإقدام ، وبعد كل عملية ناجحة أو فاشلة أغتسل بمياه باردة ، ربما بقطرات ، وربما في مياه القناة ، أو في البحر الأحمر ، دوما المياه مثلجة . كانت نشوة مقاتل ، والآن نشوة جراح عظام .

انتهت الحرب ، وربما انتهت كل الحروب ، لا أعتقد ، هذه دعايات . انتهيت من حمامي . أعدت الشغالة الفلبينية أو السريلانكية أو الأوربية الإفطار . شادرا لا أعرف موطنا لها ، فهي كالزئبق ، عاشت في بلدان كثيرة ، وتحمل جوازات سفر عديدة . مريبة هذه البنت ، التخلص منها واجب . لكنها شغالة مثالية .

شادرا غائبة اليوم في إجازة . القهوة ساخنة . أعدتها في وقت متأخر أمس في الترمس . المائدة جاهزة : خبز . قطعة جبن . قطعة زبد في الثلاجة .

عسل نحل ومرباة . عصير برتقال . أربعة تمرات جافة . لا بأس . إفطاري جاهز . طعم القهوة ساحر . تتقن هذه الشغالة صنع القهوة . نشطة هذه الشغالة . أراحتني من متاعب المصريات . تبرمج أوقاتها بدقة . إجازة يوم كامل في الأسبوع . وثلاثة أيام تغيب فيهما بعد الظهر ، تذهب إلى النادي وتدرس العربية ، وتتفرج على أفلام ، وتسافر إلى المصايف . تمتع نفسها . لا بأس . تقرأ الصحف الأجنبية والمجلات وتشاهد الدش . ليست مثقفة ، لكنها تفهم في أمور عالمنا أكثر من نفوسة ومعظم طلبة الجامعة . تود العودة إلى موطنها وبعدها تسافر إلى اليابان لتعلم اللغة اليابانية . لماذا ؟ لا أعرف ؟ تقول أن التقنيات اليابانية تسرق روحها ، وتود معرفة أسرارها . وتزعم أنها تفهم في فوائد الأسماك ونوعياتها ، والأعشاب والتوابل على كثرتها ، أكثر من العلماء . وتزعم أنها تعلمت هذه الفنون في الصين أولا ثم في اليابان في طفولتها . لهذا تود السفر إلى اليابان وليس الصين ، وإذا رأت زيادة معارفها في علوم التوابل سافرت إلى الهند ، هناك أفضل توابل ، التوابل الهندية باقات ورد السماء .

تناولت نصف كوب العصير . صببت قهوتي . القهوة باللبن في الصباح مشروبي المفضل . بدأت طعامي ، كنت أستمع إلى موسيقي خفيفة ، فأدرت المؤشر لسماع نشرة أخبار الصباح . لا جديد في العالم سوى حرب البلقان ، وتدهور أوضاع روسيا ، وتقلبات في سعر العملات . زيادة سعر صرف الدولار . وتوجهات لزيادة سعر الفائدة في أمريكا ، وهذه لها تأثيرات بالغة على أسعار الأوراق المالية في العالم . ابتسمت ، صدق توقعي ، قلت ، أمريكا سوف ترفع سعر الفائدة ، قرب نهاية رئاسة الرئيس كلينتون . هه . لا يقلقني سوى تأخر صحة والدتي ، بعد المطار ، أمر عليها في البيت قبل ذهابي إلى

الجامعة ، خالي صحته مستقرة وفي تقدم ، عناده وحبه لعمله يمنحه دفعة قوية ، ربما الأزمة الأخيرة نالت منه ، لكنه تجاوزها بسرعة .

لا تنس يا خالي . هذه أزمة بلد ، وليست أزمة مكتبة زوغلي باشا . لا أحد يسمع . هيصة . كل تشغله ليلاه ، ولكن الزبد في النهاية يذهب جفاء ، ولا يبقي إلا خير الناس . ثقلت يدي اليسرى فجأة ، ترنحت . أكملت شرب عصير الليمون . وضعت رأسي على المائدة . نوم يداعبني . لن أذهب إلى المطار بسيارتي . تاكسي . أقل من ربع ساعة من البيت إلى المطار . آه . لا مرآة في المطبخ . أين المرآة ؟ أخفتها الشغالة عليها اللعنة . هذه المرآة دائما أضعها على مقربة من يدي ساعة الإفطار ، أخفتها . قاومت . سرت . سقطت ، قمت . سقطت. رأيت عيني ، ليسا عيني . سم يسري في جسدي وصل إلى عضلات قلب . صرخت احتبس صوتي .

وصلت إلى الباب ، فتحته ودرت أبحث عن التليفون .كانت أدراج مكتبي مفتوحة وأوراقها مبعثرة ، آه . هناك . جلست على الأرض . جذبت السماعة . لا خط . التليفون معطل . لا أقوي على القيام . زحفت . هذا سم . بصقت . عضلات وجهي مشدودة لا تتحرك ، لا أبصق ، بعد قليل لا أتنفس .

نهايتي حلت إذا بقيت بمفردي . المصعد . أرتمي أمام المصعد . الناس في الخارج يصعدون ويهبطون . آي . أزحف ولا أتحرك . أسبح في الهواء . فعلتها ابنة الحرام . أحرك قدمي ولا أتحرك . السم لم يصل إلى دماغي ، أزحف على كتفي . الباب مفتوح . رميت نفسي على ظهري ، زحفت ، رأسي يدور . أمامي لحظات .

سرقت الشغالة ديسكات بحوثي . أنطق بشهادتي وأموت . آخر نقطة تأمين لنتائج عمل فريقنا تركتها أمانة لدي شغالة ، هذه البنت تفهم . حزين . أدلي بشهادتي وأموت حزينا بحسرتي .

المصعد معطل . لا أحد . صمت . صمت . صمت .

خالي سامحني .

لن أحضر إلى المطار . سامحني . نتائج البحث سرقت . انتهيت وانتهي عمل سنين عمري .. تعال يا أبي . أسمعك . تكلم . قل . أمي . أخطأت في حقك . لا أحد يسمعني . لن أرى اليزابيث . لن أرى كاتيا . لن أرى خالي . المصعد . هه . قذفت جسدي بين أسلاك شائكة . انفجرت قنبلة . أذناي فيهما طنين تنفجر فيهما الدماء . السم وصل .. لم يبلغ قمة الدماغ . لا أحس . بارد . لا ألم . هي أشباح تمر . الفلبينية تقف بعيدا . ترقبني في فرحة . تنتقم . تمسك بيد مارينا . أنا وحيد . لا ينفع البكاء . لحظات وأهمد . همدت . رميت يدي . أغلقت عيني . سددت أذني . ثقل جسدي . الهواء ثقيل . يبقى في خياشيمي ولا يدخل إلى صدري . أعطس ولا أعطس . أوهام . مت . خالي . لماذا تتركني ؟ أنت قريب مني . في المطار . تعال . الحقني . تعال نصيد السمك . نصيد البط . علمني صيد السمك من جديد يا خالي .

آه آه آه . آآآآآآآآ. آآآآ .آ.   .

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

نفوسة بنت النخيلي

الأستاذ عابد وجهه يلمع من الفرحة وبسمته ظاهرة . وردة في جيب سترته ، وفص الماس يزين الكرافتة . شباب دائم . جلسنا في الكافتيريا ، قال :

ــ الدكتور تأخر يا نفوسة .

قلت :

ــ غريبة .

أرسلت رسالة له أمس بالبريد الإلكتروني . ترجمها لي صاحب مكتب النسخ . هذا البريد لا يكتب بالعربية . قال الرجل : الرد يأتي باللغة الإنجليزية ، وهذه لا أعرفها . الأستاذ بوشناق يترجم لي رد الدكتور سامح . لا بد أن يرد على رسالتي . كنا نتبادل الخطابات في صغرنا . يرسل رسالته ويزينها برسومات جميلة ، وأكتب له شعرا ونثرا ، أنا أكبره بخمس سنوات ، كلا أربع ونصف فقط . قال صاحب مكتب النسخ ، المرسل إليه يتسلم الرسالة فور تشغيل الإنترنت . يكتب الرد وهو جالس ، ويصل الرد فورا ، مثل مكالمة التليفون .

ضحك في البداية موظفو المكتب لما سألت عن البريد الكهربائي . قال لهم صاحب المكتب ، نفوسة هانم معها حق . نعم . هو بريد كهربائي ، يسير مثل

الكهرباء . رجل في رأسه عينان . دائما يغازلني . ويسألني عن آخر أخبار الشعر ، ذات مرة أسمعته قصيدة ابن زيدون كاملة ، ومطلعها :

أضحى التنائي بديلا عن تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

هب من الفرحة ، أراد أن يقبلني لكنه خجل ، شد على يدي ، ليته قبلني ، كنت سامحته من قلبي . أردت سؤاله اليوم بالتليفون عن الرسائل التي وصلتني على عنواني الإلكتروني، دفعت له عشرة جنيهات فقط ، يا بلاش يا نفوسة ، عنوان إليكتروني بعشرة جنيهات ، يا بلاش ، سألت الأستاذ عابد ، متي نركب إنترنت في المكتبة ، وأخبرته بأنني حصلت على عنوان إليكتروني ، دفعت فيه عشرة جنيهات ، قال : فكرة . رسائل المكتبة تأتي على هذا العنوان . أفرح قلبي . لم يسألني ، لماذا وأين وكيف ومتي ؟ كان مشغولا بغياب الدكتور سامح وبقدوم الست المستشرقة . كلاهما لم يحضر بعد . طلب قهوة ، وطلبت عصير فاكهة . جلسنا . المطارات عالمٌ . ناس تسافر وناس تأتي . دنيا . تسافر الست المستشرقة ، ويعود الأستاذ عابد إلى بحثه ، تحقيق الكتب ، ومساعدة الطلبة ، المكتبة مفتوحة ومغلقة ، غياب الأستاذ عابد عن الجلوس في المكتبة يعني المكتبة مغلقة .

هلت البنت . وقف الأستاذ عابد . طويلة ورفيعة . طويلة في طول الأستاذ عابد . حقيبة معلقة على كتفها ، ومعها حسناء مثل القمر . وشاب أراه في منطقتنا في صحبتها . بعد القبل والسلامات . قال الأستاذ عابد :

ـــ نفوسة أمينة المكتبة .

قبلتني .

أخذتها في حضني . هذه البنت الرفيعة تنفع الدكتور سامح . مستشرقة . وهو أيضا مستشرق . يحب النحيفات موت . على مزاجه . لا أقول ذلك

للأستاذ عابد ، حتى لا يغضب مني . الأستاذ عابد أحب البنت من أول نظرة . معه حق . وجه ملاك . فيها رقة . مثل ورقة السيجارة . هذه بنت من شعاع على رأي الشعراء . بنت ريحها خفيف وقدمها قدم سعد . ونفسها مفتوحة للحياة ، وأحلى حياة معنا في القاهرة ، في مكتبة زوغلي باشا. تشرف على البريد الكهربائي والإنترنت ، قلنا البريد الإليكتروني يا نفوسة .

زميلتها كاتيا . ممثلة . في حلاوة مار لين مونرو ، اليزابيث تيلور . جينا لولو . نعم . صامتة . الجميلات لا يتحدثن بأفواههن يا نفوسة . يتحدثن بأعينهن . وهذه البنت تتحدث إلى الشاب بعينها اليسرى ، العين اليسرى فيها العشق والصد . غمزتها حلوة . تحبه . يستحقها . هو مثل القمر . ممثل سينما . يتحدثان في همس . والأستاذ عابد يحادث اليزابيث وهي تكتب . أنتظر الدكتور سامح لشراء هدية للست . أقوم بمفردي . عيب . غاب الدكتور . قمت . هديتان من مالي وليس من مال المكتبة أو الأستاذ عابد أو الدكتور سامح . علبة صدف كبيرة للست اليزابيث صديقة الأستاذ عابد ، وعلبة مثلها صغيرة للست كاتيا . هديتان من أمينة مكتبة زوغلي باشا . أقوم . أترك الأستاذ عابد يحادث المستشرقة على راحته ، يعرض عليها الإشراف على المكتبة وتسجيل المراجع على أسطوانات وأفلام مثل بقية مكتبات العالم . مكتبتنا أهم مكتبة . الأولي في نوعها .

صعدت السلالم في طريقي إلى المحلات ، رأيت مارينا من بعيد ، جريت وراءها ، تقدمت نحو باب الدخول ، ناديتها ، قدمت أوراقها إلى الضابط ودخلت . لا حقائب معها ولا شنط كبيرة ، حقيبة صغيرة في يدها ، ناديت عليها : يا ست مارينا . دخلت . كنت أود سؤالها عن الدكتور سامح ، لا بد أنها أخرته بسفرها . وقفت . وبعدها ذهبت إلى محل لبيع الهدايا الفرعونية

والصحف والمجلات . الصالة واسعة وأفواج قادمة لا حصر لـــها . أشـــكال وألوان . وقفت أتفرج على العالم . يا مصيبتي . شغالة الدكتور سامح الخـــالق الناطق . شادرا . كلمتها . تجاهلتني . وهي التي تحدثنــــي كــل يــوم علـــى التليفون . كانت متنكرة . شعرها أصفر . هذه باروكة . هذه البنـــت ليســت فلبينية بل أمريكية . ناديت : شادرا . لم ترد . أمسكت بيدها . صرخت : قالت شيئا لم أفهمه . لكنه فر نساوي . هذا فرنساوي . أعـــرف الفرنســاوي مـــن الأستاذ بوشناق . دائما يتكلم في التليفون بالفرنساوي .

احتار دليلي . الأستاذ مشغول ؟ ماذا أفعل ؟ سألت حضرة الضابط ، قلت ، هذه فلبينية . اسمها شادرا . نظر إلى غاضبا وطلـــب منـــي مغـــادرة بوابـــة الدخول . نهرني . قال شيئا قبيحا ، تسول على الصبح ، أعمل لك محضرا .

أنا لست ناقصة . انسحبت . المؤمن دائما مصاب ، مشـــيت . اشـــتريت علبتين صدف جميلتين . وبعدها نزلت السلالم ، كان الأستاذ عابد يتحدث إلـى المستشرقة ، هو يتكلم وهي تكتب . سكت . بعدها قلـــت : رأيـــت مارينـــا . هربت مني . وبعدها رأيت شادرا ، هربت مني هي الأخرى .

سألني الأستاذ عابد :

ــ مارينا وشادرا ؟ هذه فيها إنة يا نفوسة .

قلت : نعم يا مولاي . والدكتور سامح تأخر ؟

سألت اليزابيث :

ــ أين الدكتور سامح ، وعدني بالمجيء .

قال الأستاذ عابد :

ــ غريبة ؟

طلبت اليزابيث من صديق زميلتها الاتصال به بالتليفون ، عنده محمـول .
قال : حاضر ؟ لم تعطه النمرة . طلبه . لا أحد يرد .

قال الأستاذ عابد :

ــ لا بد أنها جراحة ليلية . الدكتور سامح لا يتأخر عن إسعاف مريض .

صمتت اليزابيث . قالت :

ــ تحياتي له .

نظرت في ساعتها وقامت . ودعها الأستاذ عابد ، ودعتها . سألتها أن تأتي مرة أخري ، قالت حاضر ، وشكرتني على الهدية . ذهبـت . ضـاعت فـي الزحام . وكنت أراها وسط الناس بسبب طولها .

قال الأستاذ عابد :

ــ نذهب لرؤية الدكتور سامح . بيته قريب . نترك له ورقة .

قلت :

ــ نعم .

مارينا والشغالة سافرتا مثل الحرامية . أخبرت الأستاذ عابد بما يشـغلني ، قال :

ــ هذه فيها إنة يا نفوسة .

طاوعته . هذه فيها إنة كبيرة يا نفوسة . تذكرت حلمي . تماسـكت . لا صراخ هنا في المطار . هل تحمل مارينا سكينة المطبخ معها ؟ كنـت أود أن أخبر حضرة الضابط ليفتشها ، مادامت لم ترد على ، لكنني خفت . قلت : هذه فيها سين وجيم يا نفوسة ، فضفضت بالكلام مع علاء العـتر لـم أخلـص ، مسكني في الأسانسير وفي بير السلم ، وهات يا أسئلة ، حتـى وقعـت مـن طولي ، ويا ليته نفع ، فين أنت يا علاء ؟ مارينا تصرفـت . السـكينة فـي

حقيبتها ، كان السائق يقف بعيدا ، ناديته ، سألته : هل رأيت شادرا يـــا عــم فرج . قال : نعم . حضرت في سيارة منذ قليل .

كان الأستاذ عابد خائفا .

سكت .

* * *

الفصل الرابع والثلاثون

بوشناق الطهطاوي

نفذ السهم . وقعت الصاعقة على رؤوسنا نسفتها . زلزت الأرض وهدم الكون فوق رأسي .أظلمت الدنيا ، وغبت . مت . في البداية لم أصدق . هل يمكن ؟ هل يعقل ؟ ولما تأكدت أكلني الحزن والغيظ ، فقت ، هي لحظة أو أقل ، وبحثت عن أبو المحاسن المصري ، هو وابنته مارينا سبب مصائبنا ، وجدته في مكتبه ، ما وقع من فعل ابنته مارينا . سألته قبل السلام :

ــ أين الأستاذة مارينا يا أبو المحاسن ؟

بكى ؟ انتظرت . في صوت خافت متلعثم ، قال :

ــ تركتني يا بوشناق . هجرتني وهجرت البلد . سافرت صباح اليوم إلى قبرص ومنها إلى ..

رميت السماعة .

سمعته يقول إسرائيل أو أمريكا ؟ رميت السماعة ، لا فرق . صادت مارينا الدكتور سامح كسمكة ، وهو الذي يلاعب الثعابين والحيات ، بطل صاعقة ، قلبه من حديد . قضت عليه وهربت . انتقمت . صدقت نفوسة في تخوفاتها ، رأت المصيبة بعينين مغمضتين قبل وقوعها ، قالت وروت ولم يسمعها أحد . سخرنا من تخوفاتها ، شغلنا بالضحك ، والمصيبة قائمة على رؤوسنا .

كلنا لا يسمع ولا يرى . البسطاء يرون . يقولون . لا يسمعهم أحد .
يا للعار .

كلنا قتلة وشهود زور فيما عدا نفوسة . رأت . فهمت . نطقت بالحق . لا بكاء ولا عزاء .. هذه عركة والثأر قبل الأربعين . آه يا بوشناق . هذه نوبة غضب في لحظة حزن . يرحمه الله . ربما الانتقام في القرن القادم . أواخر هذا القرن كلها هزائم ، وضحك على الذقون . كلام في كلام . عندما تحل مئوية ثورة ١٩١٩ في القرن القادم ربما لنا كلام ، إذا كان لنا عمر . وربما أيضا تضيع أوراقها في زحام الحياة .

أبوالمحاسن المصري كان يعرف بنية ابنته . أنذرنا في كلام غامض كبير . فهم الأستاذ عابد الرسالة ، قال ، الرجل يخلي ذمته أمامنا يا بوشناق ، ابنته تدبر لعملية مهيبة أخرى . عملية كبيرة . ليس أقل من التخلص من الدكتور سامح .

قالها الأستاذ عابد بعضمة لسانه أمامي وكررها ولم أفهم ، من أين لك الفهم يا بوشناق ؟ البلد كلها قلت مفهوميتها. ومن فهم لا يبالي . ومن يبالي لا يفعل . ومن يفعل يحرث البحر . والبحر . القصد .

بكى أبو المحاسن المصري على التليفون، وأسمعني بكاءه ، يسود مني مواساته الكلب . ضاقت الدائرة يا بوشناق ولا تفهم ، الحق بين والظلم بين ، هذه ليست قصة حب فاشلة، والفتاة تنتقم من حبيبها ، هذه مؤامرة كبيرة يا ولد الفلاحين ، شركات عالمية ورجال أعمال أجانب ، ومصالح كبيرة كبيرة ، والبلد سداح مداح .

في البداية مكتبة زوغلي باشا ، وبعدها .. يا للمصيبة ، كل هذا جرى ووقع أمام عينيك ولم تفهم يا بوشناق . بلغ العجز مداه . والقهر في القلب تلال .

تم التخلص من الدكتور في ثانية . كما تم التخلص من غيره من العلماء ، هذه ليست أول حادثة ولا آخر حادثة . هذه مؤامرة يا بوشناق . نامت نواطير مصر عن ثعالبها . ماذا أقول ؟ هل هناك كلمات عزاء ؟ هذه حرب .

الود ودي أن أصرخ في عرض الطريق وأقول ...

البلد يغرقها الكلام ، كلها صور ثابتة ومتحركة ولا شـــيء يقـال . تقـع الواقعة ، تأخذنا الدهشة ، هذا كل ما في الأمر ، عقول خربت ، ومدارك حـط من قدرها ، حتى ضاع الفرق بين الحسن والقبيح . عليه العوض .

جنازة مثل بقية الجنازات . أنهار الصحف تغرقها التعازي . وماذا بعـد ؟ الخط المستقيم بدايته نقطة ، والطرق المتعرجة بدايتها نقطة . الطريق الـهابط يبدأ بطريق صاعد . ولا يذل الرجال قدر القهر .

العلماء طبقات ، وتتفاوت أقدارهم . الدكتور أحمد أبو الشرف يعرف قـدر الدكتور سامح ، عنده مفاتيح هذه الجريمة وأوراقها ، ليس لي خبرة ولا قـدرة على فهم ما بسطه لنا ، كلنا ضحكنا عند ذكر ثعابين الدكتور سامح وقردتـه ، تركنا الفهم وتوقفنا عند السفاسف . السكوت عن الحق كبيرة مـن الكبـائر . وهذه جريمة . لا بد أن يتكلم الدكتور أحمد أبو الشرف . لا بـد أن تتحـرك الشرطة . لا بد أن يقوم الناس . في قيام الناس صلاح ومنفعة .

لا عزاء .

* * *

الفصل الخامس والثلاثون
عابد عبد المتجلي زوغلي

لا أقوي علىحمل النعش مع الرجال . أهرول وألمسه براحتي . أتعلق به . حادثته بدموعي أطلب السماح ، وصحبته إلى موضع الدفن . ربما يغفر لـــي . وسدته حجرا ، ورميت بحفنات تراب وترحمت . الدكتور سامح مات . تغمدنا الله برحمته .

خرجت من القبر . صمدت واقفا أمام الناس ، وأنا أتهاوى على بعضي .

أتقبل العزاء ؟

قتل الدكتور سامح بالسم . أليست هذه مهزلة ؟

هل هذا يعقل ؟ أين كان هؤلاء النـــاس الذيـــن يحيطـــون بنـــا ؟ أســـاتذة جامعات . علماء . طلبة . رجال سياسة . رجال شرطة . رجـــال أعمـــال . ضباط جيش . مثقفون . مهندسون . رجال صحافـــة . إعـــلام . مســـئولون حكوميون . عمال . أطباء . لا أحد وقف معه . غاب الناس قتل غدرا .

لا فائدة .

وحيدا أحمل أحزاني ، هذا ولدي الذي ربيته ، ومات شهيدا .

* * *

الفصل السادس والثلاثون

نقيب علاء العتر

لا راد لقضاء الله . قدمت بالطائرة وفاتتني الجنازة ، توجهت من المطار إلى السرادق .كان السرادق خاليا ، كلهم في الجنازة أو في المدافن ، جلست بمفردي في ركن .

فاتتني الجنازة بسبب زحمة الطرق ، أصل متأخرا دائما ، في صغري فاتتني جنازة خالي ، واليوم فاتتني جنازة حبيب قتل بالسم ، ولا جريرة له سوى .. عملية أكبر مني .

كان الله في عون والدته والأستاذ عابد عبد المتجلي ، صدمة تهد الجبال ، الرجل مصاب ، لا كلام ينفع ولا عزاء . دمه معلق برقابنا جميعا إلى يوم القيامة . في هذه الساعة يوارى جثمانه التراب بين لطم خدود وعويل أحبة ، وأنا أجلس في موضعي عاجزا بين عمال الفراشة .

نفوسة استشفت الأحداث قبل وقوعها .الأمور كانت واضحة وتسير وفق منطق مرسوم لها في خط مستقيم صاعد ، كل حلقة تسلم لأخرى ، ولا بد أن تنتهي بفاجعة ، لكنه عمى القلب وقلة الحيلة وغياب الفطنة .

ساعة صمت .

رهبة الموت لا تفوقها رهبة . نكست رأسي ، تبللت عيناي ، سلاحي معلق إلى جنبي ، يشله عجزي . دموعي لا تحرك سلاحي ، سلاحي تحركه إرادتي ، وهذه فقدتها ، ضاعت عندما استسلمت للنقل وأنكرت .

على صفحة أحزاني أخط استقالتي .

ضجة الميدان عويل . من يصرخ على من ؟ كلنا قتلى هذا الزمن القبيح .

خسارة يا مصر .

رأيته قادما وسط المعزين . قمت . اتجهت ناحيته . حضنته وبكيت على كتفه . طفل أنا . هذا الأستاذ عابد عبد المتجلي زوغلى ، والقتيل الدكتور سامح . جريمة أركانها غائبة ، ومغزاها ينطق بما ينتظرنا .

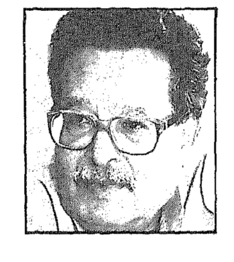
وقت النحيب حل .

امتلأ السرادق بخيرة رجال البلد . وقفت مع الواقفين على مقربة من الأستاذ عابد ، في مدخل السرادق ، أتقبل العزاء . وفي الحقيقة لا عزاء .

* * *

انتهت

رقم الايداع : ٥٧٢٧ / ٢٠٠٠
I - S - B - N
977 - 07 - 0724 - 9..



جميل عطية إبراهيم

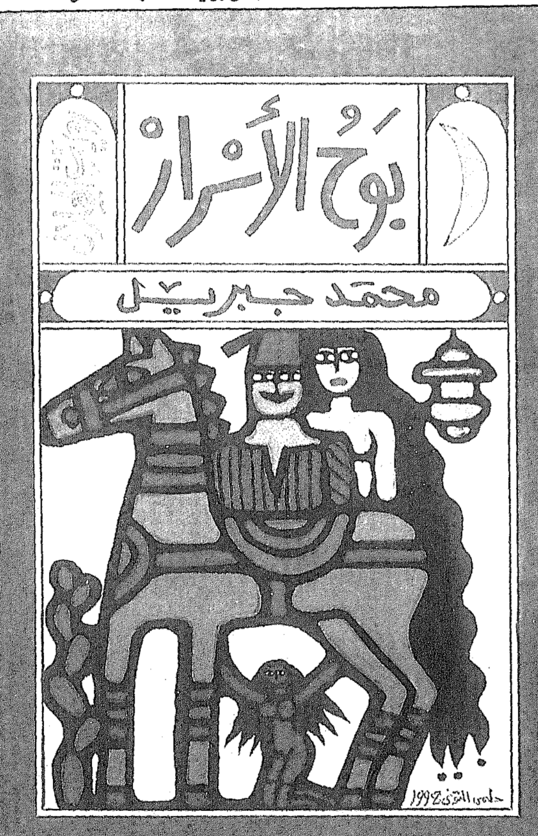
- من مواليد الجيزة فى ٧ أغسطس ١٩٣٧ .
- يكتب القصة والرواية ، ومن مجموعاته القصصية «الحداد يليق بالأصدقاء» و«أحاديث جانبية» ، ومن رواياته «أصيلا» ، و«والبحر ليس بملآن» ، و«النزول إلى البحر» ، وثلاثية الثورة والتى تضم ثلاثة أجزاء ، «١٩٥٢» و«١٩٥٤» و«١٩٨١» ورواية «أوراق سكندرية» .
- شارك فى تأسيس مجلة «جاليرى ٦٨» وتُرجم بعض أعماله إلى لغات أجنبية .



هذه الرواية تتناول المسكوت عنه فى تراثنا ، إلى جانب المسكوت عنه فى هذا العصر على المستوى العالمى ، عن حسن نية فى بعض الأحيان وعن سوء نية فى أحيان كثيرة ، حيث يشتبك المحلى مع العالمى ، من عولمة وشركات عابرة للقارات لايعرف عنوانها ، وبطبيعة الحال ينتهى التشابك بمأساة تكشف عنها الرواية .

وتأتى هذه الرواية بعد ثلاثية «الثورة» ، ورواية «أوراق سكندرية» ، لتؤكد السمات المميزة لكتابات جميل عطية إبراهيم ، حيث الصدق الفنى ، ودقة اللغة وحيادية التقديم ، وهى سمات يتميز بها الكاتب ، حيث يشتبك الفرد مع المجموع ، والخاص مع العام ، والمحلى مع العالمى .

العــــدد القـــادم من روايــات الهـــلال



تصدر : ١٥ يونيه ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

الناشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧

فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢